الفصل الثالث

جذور الحداثة بين كانط و البنيوية

ويشتمل على :

- تمهيد و نظرة عامة على البنيوية.

أولاً - أهمية المشروع البنيوى فى فكر الحداثة و ما بعد الحداثة.

ثانياً - الجذور البنيوية و التواصل الكانطى.

ثالثاً - إخفاقات و إسهامات البنيوية.

- تعقيب.

تمهيد و نظرة عامة على البنيوية :

أن البنيوية كتيار فكرى يُمثل الحداثة أصبحت (فى عالمنا العربى) غنية عن التعريف إلى حدٍ ما (بما كُتب عنها)، إلا أن هذا لا يمنعنا من سبر غور البنيوية لتوضيح أهم جوانب هذا التيار الفكرى المهم من جهة، و من جهة أخرى الوقوف على أهم خصائص البنيوية كاستراتيجية نقدية، امتد تأثيرها إلى نظريات النقد التى تمثل تيار ما بعد الحداثة، كما سيتضح ذلك من خلال بحثنا فى الفصل الرابع للتفكيكية و مارتن هايدجر، و كذلك فى الفصل الخامس لعلاقة التفكيك بالمذاهب الفوضوية و العدمية.

فالبنيوية (**Structuralism**) سيدة العلم و الفلسفة ابتداء من عام ١٩٦٦ و حتى منتصف الثمانينيات، و ربما سيظل تأثيرها باقٍ، إلى المستقبل القريب، تلك النزعة الفلسفية الجديدة التى شهدت السنوات الست (ما بين عامى ١٩٦٠م – ١٩٦٦م) ميلادها، و أبناء الحى الخامس و السادس من العاصمة الفرنسية (باريس)، هم من أطلق عليها اسم البنيوية، ففى حين أعلن نيتشه فى نهاية القرن التاسع عشر (موت الإله)، فقد جاء فلاسفة البنيوية فى هذا التوقيت ليعلنوا (أو يبشروا بـ) موت الإنسان، أو أفول البشرية، حيث أصبحت البنية هى وحدها (إلهنا الأعلى)، بمعنى (الإله) الموجود الأول و الباقى دوماً، و بذلك أصبحت البنية (موضة أو تقليعة العصر) تجتاح جميع المجالات، فهى لم يعد ينظر لها على أنها مفهوم علمى أو فلسفى، يقتصر تناوله على علماء اللغة و أهل الأنثروبولوجيا، و التحليل النفسى، و فلاسفة (الابستمولوجيا) فقط، بل أضحت المدخل الأساسى (و المفتاح العمومى)، لأى عمل سياسى، أو اقتصادى، أو تربوى، أو نقد

أدبـى، أو عمـل فنـى، و أدبـى، و مجـال تصـميم الأزيـاء، و حتـى الطهـو، وما إلى ذلك من نشاطات بشرية. [1]

و بـذلك أصـبح يُنظـر للكـون باعتبـاره بنيـة كبيـرة (تضـم عـدداً هـائلاً من البناءات الصغرى)، أو نسقاً (مجموعة من العلاقات المنتظمة بحسب نظام معين).

و بعد ذلك الانتشار الواسع، باتت النظرة البنيوية تمثل قطيعة معرفية (اسـتقلال بوجهـة النظـر التـى تتنـاول جميـع علـوم و معـارف ذلـك العصـر) مـع كل الفلسفات السابقة، و التى تتخذ من الذات محوراً لها، "و من هنا فإن ليفى ستراوس يرفض كلا من الفينومنولوجيا و الوجودية، نظرا لأن كلا منهما يسلم بوجود (استمرار أو اتصال) بين (المُعاش) و (الواقعى)، فى حين أنه لا سبيل إلى بلوغ (الواقع) – فيما يقول زعيم البنيوية الانثروبولوجية – اللهم إلا انطلاقاً من عملية تنحية (المُعاش)... أما السر فى رفض ليفى ستراوس للوجودية – بصفة خاصة – فهو يرجع إلى أنها لا تمثل فى نظره تفكيراً مشروعاً، إذ أنها من جهة تُظهر ضرباً من التواطؤ مع أوهام الذاتية، كما أنها من جهة أخرى ترقى ببعض الاهتمامات الشخصية إلى مستوى المشكلات الفلسفية ".[2]

وهـذا يفسـر لنـا سـبب هجـوم البنيويـة علـى الـذات و الفلسـفات التـى تدعمها، ومن خلال رفضها لتلك الفلسفات نجدها تتجه إلى المنهج العلمى وذلك من خلال إشادة ليفى ستراوس"بكل من (التحليل النفسى) و(التحليل

---

(١) زكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " مشكلات فلسفية (٨)، مكتبة مصر، طبعة أولى، د ت، ص ص (٧ _ ٨).

(٢) المرجع السابق : ص (٩).

الماركسى) جنبا إلى جنب مع (الجيولوجيا) [*]، مؤكداً أن منهج هذه الدراسات العلمية الثلاث، يقوم أولاً و بالذات على نوع خاص من الفهم، ألا وهو ذلك الذى يرد نمطاً من الواقع إلى نمط أخر، معتبراً أن (الواقع الحقيقى) لا يمكن أن يكون هو (الواقع الظاهرى المباشر)، و أن من شأن طبيعة (الحق) أنها لا تتجلى، إلا من خلال ذلك الجهد الذى تبذله فى التهرب منا، و التحامى (التخفى) عنا، و لهذا نجد ليفى ستراوس يقيم تعارضاً بين (محسوس) السطح الظاهرى، و (معقول) النظام الخفى ".[١]

وهذا النظام الخفى (المعقول) هو هدف البنيوية، التى تسعى و تبحث عنه لتثبته، فوق الواقع المُعاش الظاهرى، و هذا هو منبع ثنائية الفكر البنيوى، وهى بالطبع تُعلى من شأن النظام على حساب الواقع الظاهرى، وذلك من منطلق أن النظام هو الذى سيمكننا من معرفة الكيفية التى يعمل ويوجد بها الواقع الظاهرى، أو على الأقل ستمكننا من اكتشاف الكيفية التى تكوّن بها الواقع، و كذلك الكيفية التى نُدركه بها (بصورة أفضل من تلك المعرفة التى تتمركز حول الذات).

وما ذلك الانفصال بين الواقع (المُعاش) و المعقول (النظام)، إلا انعكاساً لواقع النظرة اللغوية البنيوية، التى معها انفصلت اللغة عن الواقع (فلم تعد اللغة تمثيلاً للواقع) بل أضحت نسقاً مستقلاً بذاته[٢]، فظهور الأدب بالصورة التى نعرفها حالياً ليؤكد وجود اللغة المستقل (و الغير متعلق بمرجع يُرد إليه كالواقع)، حيث تحول الأدب لاستخدام لغته الخاصة، تلك التى تُظهر

(*) هى علم الحفريات الأثرية .

(١) المرجع السابق : ص (٩).

(2) Michel Foucault, " The Order of Things : An Archaeology of the Human Sciences, " (New York : Vintage-Random House, 1973), p.235.

الوجود الطاغى المتمرد للكلمة، و يُعد ذلك تعبيراً عن لغة لا تعترف بأى قوانين سوى تلك التى تؤكد وجودها المستقل. (١)

وخلاصة القول هنا فى البنية أن يُنظر لها باعتبارها (القانون) الذى يفسر وجود الشىء و معقوليته، فهى نسق من التحولات يتميز بثلاث خصائص هى (١) الكلية (بمعنى أن نتعامل معها ككل واحد ليس كعناصر فردية)، (٢) التحويلية (بمعنى أن التغيير فى علاقة أو موقع أى عنصر من عناصر البنية مع غيره و بالنسبة لغيره يؤدى إلى تحول كامل لعلاقات باقى العناصر ببعضها و كذا تتحول معطيات البنية، و كأنها بنية جديدة متحولة عن بنية حدث لها تحول فى علاقات عناصرها، فالذى يميز بنية عن غيرها هو نظام علاقات عناصرها)، (٣) التنظيم الذاتى (بمعنى أن نظام علاقات و ترتيب العناصر لا يُفرض على البنية من الخارج، بل هو ينشأ ذاتياً تُحدده طبيعة علاقة العناصر ببعضها)، و تنصب الدراسة البنيوية على العلاقات الباطنية الثابتة بين العناصر، و لهذا فهى دراسة حالة أى تهتم بالجانب السكونى للظاهرة المدروسة (للوضع الحالى بغية تثبيت العلاقات)، و لا تهتم البنيوية الغربية بالجانب التطورى للعلاقات ؛ بل تكتفى فقط برصد التحولات التى قد تطرأ على البنية (أو الظاهرة) موضوع الدراسة. (٢)

والجدير بالذكر هنا التنويه إلى الفارق الجوهرى بين البنيوية الماركسية التى "تحاول تحقيق حل وسط تستطيع البنية اللغوية للنص الأدبى على أساسه أن تكون مستقلة (الداخل) من ناحية، و أن تؤكد علاقتها بالبنى و الأنظمة الأخرى، كالنظام الاقتصادى و الصراع الطبقى و الواقع الثقافى العام (الخارج) من ناحية أخرى، أما البنيوية الأدبية فى مفهومها العام،

---

(1) Ibid. pp.299-300.

(٢) زكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " ص ص (٣٢ _ ٤٤).

فهى ترفض ذلك الربط بين النظام اللغوى الداخلى للنص و أى أنظمة أخرى خارجية "[1] سوى نسق النص (الأصغر) و ما يتبعه من نسق (أكبر) الشكل الفنى أو الأدبى الذى ينتمى إليه هذا النص (شعر أم نثر أم رواية و لكل منهما قواعد خاصة بالكتابة فيه)، و مرجع كل هذا للنسق العام للغة (كنظام).

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن البنيوية اللغوية هى أقوى (وأبقى أثراً) من التطبيقات البنيوية الأخرى (فى الانثروبولوجيا و فى الأبستمولوجيا أى البنيوية الثقافية، و فى التحليل النفسى و فى النظرية الماركسية)، هذا بخلاف تطبيقها فى مجال النقد الأدبى (لدى رولان بارت) الذى بدأ بنقده دريدا عندما وجه نقده للبنيوية.

١. أما عن تطبيق البنيوية فى النقد الأدبى، فكان رولان بارت من رواد هذا المجال (فى بداية إنتاجه الأدبى، قبل أن ينقلب عليها متبعاً استراتيجية النقد التفكيكى) [2]، و خلاصة استراتيجية البنيوية فى النقد الأدبى هى (القراءة التشخيصية)، و هى القراءة التى ينظر للنص أو العمل الأدبى من خلالها باعتباره بنية كلية (نسق من العلاقات التى بين العناصر أو وحدات النص أو العمل الفنى)، و لا يملك أحداً سلطة على تحديد المعنى (للنص أو العمل الفنى) سوى النص ذاته بما يتضمنه من علاقات بين وحداته، فهناك النسق الأصغر الذى يحدد معنى الوحدات المركبة (مثل الجملة أو العبارة أو جزء من أجزاء العمل الفنى)، و ذلك تبعاً للقواعد النحوية للغة المكتوب بها النص، ثم تتجمع تلك الأنساق الصغرى لتكون النسق الأكبر (نسق النص ككل واحد)، و هذا النسق تحكمه من جهة معايير النسق الخاص (الذى يحدد معايير و قواعد إنتاج هذا اللون الأدبى

---

(١) عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (١٧٨).

(٢) ميجان الرويلى : "قضايا نقدية ما بعد البنيوية "ص (١٦٤).

من شعر أو نثر أو رواية أو غيرها، و مدى ملائمة و التزام هذا العمل بتلك القواعد)، و من جهة أخرى النسق العام (و هو خاص باللغة من حيث القواعد النحوية العامة وكذلك القواعد الأدبية بمعنى الاستخدامات البلاغية و الرمزية الموجودة بالعمل الأدبى)، و هنا فقد يُنتج المعنى العام للعمل الأدبى موضوع النقد، من خلال التحليل البنيوى، الذى يستخلص المعنى بفحصه لعلاقات وحدات العمل الأدبى بعد تثبيتها و عرضها على معايير الأنساق الأربعة (السابق ذكرها)، لتحديد معانى الوحدات، ثم الأجزاء، التى فى النهاية تُكوّن المعنى النهائى، للعمل الأدبى موضوع النقد. (١)

و من هذا نفهم معنى قول بارت بموت المؤلف لانقطاع صلته بالنص، فالنص يُحدد معناه داخلياً، فلا حاجة لنا بالمؤلف، أو بالمعنى الذى كان يقصده، فالقارئ هو الذى سيستنتج المعنى الذى سيُنتجه النص، أى أن القارئ لدى بارت هو المؤلف الجديد. (٢)

٢. أما عن تطبيق البنيوية فى مجال اللسانيات فنجد نموذج البنيوية اللغوية، و رائدها "فرديناند دى سوسير"، و هو الأب الحقيقى للاتجاه البنيوى، الذى تم تطبيقه على عدة مجالات مكوناً الاتجاه الذى نطلق عليه الحداثة الغربية. فقد ميز سوسير بين اللغة (كنظام و مجموعة قواعد مستقلة عن المجتمع) و الكلام (الأداء و الاستخدامات اللغوية للمجتمع و هو سبيل التواصل بين الفرد و المجتمع اللغوى الواحد)، و عَرّف العلامة بأنها كلٌ يتألف من اتحاد الدال و المدلول، و أرسى سوسير المنهج السكونى (دراسة للغة فى ثباتها

---

(١) عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص ص (٢٠٣ _ ٢٠٦)، و عبد لوهاب جعفر : "البنيوية بين العلم و الفلسفة عند ميشيل فوكوه " ص (٢، ٣، ٥، ٦، ٧، ٩، ٨٣، ٨٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧)، و ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد البنيوية " ص (١٣٤، ١٥٨).

(2) Roland Barthes, : “ Image Music Text ”, trans. Stephen Heath (London : Fontana Press, 1977), p.142, 148.

الحالى كبنية تتكون من هيكل العلاقات الثابتة بين عناصر اللغة)، رافضاً دراسة اللغة بالمنهج التاريخى التطورى، لأن اللغة لا تنطوى على أى بعد تاريخى، و رأى سوسير أن علاقة الدال بالمدلول هى علاقة اعتباطية (عشوائية)، بمعنى أن الارتباط الذى بين الدال والمدلول قد تم بحسب ما اصطلح عليه أفراد مجتمع اللغة الواحد، أى بالعادة و التعود على الاستخدام بهذا الربط (و ليس فى الدال الرمزى ما يُشير أو يدعم أو يؤكد حتمية هذه العلاقة)، و هذا ما قصده سوسير بعشوائية علاقة شقى العلامة (الدال و المدلول). (١)

٣. أما عن البنيوية فى الانثروبولوجيا عند كلود ليفى ستراوس(*) فهو يرى أن البنية ليست واقعاً تجريبياً (محسوساً)، بل هى واقع كلى يختفى وراء المعطيات الظاهرة (فلها نظامها الكلى المسبب للظواهر الفوقية التى تحجبه أو يحتجب وراءها، و للبنية طبيعة لا شعورية)، و ستراوس فى هذا الرأى لا يبتعد عن فكرة كل من (أفلاطون) و(كانط)، التى ترى أن هناك نظاماً عاماً ينتظم بحسبه الكون (و التجربة و الملاحظة يُعززان من هذا التأويل المثالى للكون). و يميز ستراوس بين الصورة (المظهر) و المضمون (البنية)، و هنا تكمن جراءة ليفى ستراوس فى تحطيم التقابلات التقليدية، كالتى بين السحر و العلم (أو بين التفكير الأسطورى و التفكير العلمى للعقل البشرى)، فيرى ستراوس أن لكليهما وسائله الخاصة و المستقلة، و أى منهما يمثل فاعلية إنسانية تسعى للتصدى للعالم، ففى حين يستخدم التفكير السحرى بقايا الأحداث، نجد التفكير العلمى يصنع أحداثه

---

(١) زكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " ص ص (٤٧ _ ٧٨).

(*) كلود ليفى ستراوس (١٩٠٨ _ ؟) رائد للبنيوية الانثروبولوجيا، عالم و فيلسوف فرنسى دَرس فى فرنسا و فى جامعة ساوباولو فى البرازيل .

الخاصة، و الاختلاف هنا كالاختلاف بين تفكير البدو و الحضر، أو بين الفلسفة و العلم أو بين الهاوى و المهندس فالمنهج (التركيب) واحد و الهدف واحد (الصناعة)، و لكن الاختلاف فى الإمكانيات المتاحة لكل منهما، وفى طريقة العمل (يدوياً للهاوى و آلياً للمهندس). و يرفض ستراوس التاريخ، من منطلق رفضه للتواصل التاريخى، فالأحداث منفصلة ويجب أن تدرس دراسة حالة (وصفية مكانية)، ولا يرفض مفهوم التقدم و لكن يرفض أى دور للاتصال بين الأحداث التاريخية قد يؤدى لتفسير التقدم، و مفهوم التقدم عنده يعنى تراكم (أو توفر) الممكنات التى تحكمها الصدفة.

والنزعة الإنسانية لدى البنيويين، تقدم العالم على الحياة، حيث يضحون بمفهوم الإنسان الفرد (الذى يشكل تهديداً للنظام الكونى بما يبثه من اضطراب)، من أجل إحياء البنية الإنسانية (المتمثلة فى جزء من نظام العالم الأصلى) [1]. و قد طبق ليفى ستراوس مبادئ النسق، و النموذج اللغوى البنيوى فى دراسته الانثروبولوجية للأساطير، و نظام و رموز (الطوطامية)، و شعارات و نظم القرابة، و علاقات المحارم، و قوانين التحريم، وعادات و تقاليد مجتمع القبائل (الهنود الحمر فى أمريكا اللاتينية)، و كل ما يمثل (ثقافة) هذا المجتمع الفطرى، فى مقابل ما هو (طبيعى) فى نشاطات هذا المجتمع، لتكشف لنا دراسته للمنهج البنيوى تساوى تفكير الإنسان البدائى (الفطرى) مع تفكير الإنسان الحديث (إنسان الحضارة الغربية)، من حيث (اللاشعور الجماعى) البنية الواحدة، التى يصدر عنها التفكير بنفس المقدمات، و ذات النتائج مع الاختلاف فى

---

(١) المرجع السابق : ص ص (٨٠ – ١٢٠).

طريقة (وسيلة) الوصول لنفس الغايات، على غرار مثال الهاوى و المهندس سابق الذكر.[1]

٤. أما عن البنيوية الثقافية (أو أركيولوجيا المعرفة) عند ميشيل فوكوه[*] فهى تنطلق من معادلة أن البنية = اللاشعور = الرمز = النموذج = اللغة. و من خلال داسته البنيوية للثقافة (أو الحضارة) الأوربية على مر العصور (الحقب المعرفية)، وجد أن معطيات كل حقبة ثقافية تمثل بنية (أو نسق من العلاقات الثابتة بين عناصرها المعرفية)، و أن أى تحول يطرأ على أى من علاقات هذه العناصر سيؤثر على باقى علاقات النسق، مما يؤدى لظهور حقبة (بنية) معرفية جديدة تختلف عن البنية (الأولى) المُتَحَول عنها. و قد بينت الدراسة البنيوية لظاهرة مثل (ظاهرة الجنون أو الاختلال العقلى) أن الثقافة الأوربية – فى عصر النهضة – كانت تعتبرها خروجاً (أو انحرافاً إرادياً) فأقصت المريض (حالة الجنون) بعيداً عن المجتمع، و الثقافة الأوربية بهذا تكون قد رفضت أن تتعرف على ذاتها (من خلال تلك الظاهرة المرضية)، فالجنون – فى رأى فوكوه – ليس كياناً مستقلاً عن الواقع الاجتماعى أو عن العقل ؛ بل الجنون و العقل منطقتان يحددهما المجتمع نفسه، و بهذا يكون تسجيل تاريخ الجنون فى الثقافة الأوربية يعنى وصف تاريخ بنيوى للأفكار و الأنظمة و الإجراءات القانونية، و البوليسية و المفاهيم العلمية المتصلة بهذه الظاهرة، لأن تطور أحد هذه المفاهيم يصحبه تغيير فى سائر المفاهيم،

---

(١) عبد الوهاب جعفر: " البنيوية فى الانثروبولوجيا و موقف سارتر منها " ص ص(٣٥ _ ٩٠).

(*) ميشيل فوكوه فيلسوف بنائى فرنسى (عمل أستاذاً بالكوليج دى فرنس) من مؤلفاته " تاريخ الجنون " عام ١٩٦١م، و " تاريخ العيادة " عام ١٩٦٣ م، و " الألفاظ و الأشياء " عام ١٩٦٦م، و " أركيولوجيا المعرفة " ١٩٦٩م، و " نظام المقال " عام ١٩٧١م .

و كذا فى علاقتها ببعضها. فتطور الطب و كذا النظرة العامة للجنون كظاهرة مرضية، قد اقترن بتحول لغوى لصيغة السؤال من (ماذا عندك؟) إلى (أين تشعر بالألم ؟). و الأخذ المتطور بالمنهج البنيوى هو الذى مكن فوكوه من الكشف عن البنية المعرفية (الإبستمولوجية) الكامنة وراء مفاهيم و معارف كل عصر على حدة، مع رفضه لفكرة الاستمرارية لأى من المنطوق (الذى هو ذرة المقال)، أو أى من قواعد البنية حتى و لو ظهر فى بنية أخرى لأنه سيكون قد دخل فى علاقات جديدة، مشكلاً بنية جديدة (مجموعة من المعارف والعلوم) لها خصائصها المُمَيزة. (١)

٥. أما عن البنيوية السيكولوجية (فى ميدان التحليل النفسى)،عند "جاك لاكان"فهى لا تقدم تفسيراً جديداً للتحليل النفسى، بل تؤكد على أهمية دراسة اللاشعور الفرويدى باعتباره لغة ذات بنية خاصة، و يظهر اللاشعور فى الأحلام و الأمراض النفسية (حيث يمثل عرض المرض دالاً لا مدلولاً)، و أيضاً يظهر اللاشعور على لسان المجنون، كقول لا ينجح صاحبه فى إيصاله بوضوح، إلا أنه ينطق باسم الذات كـ (لا شعور)، و فى نفس الوقت لا ينطبق على الذات (بأن يعبر عنها فى شعورها التى تُظهره)، فالذات لا تصنع نفسها لأنها نتاج النظام اللغوى أو الرمزى. فالوظيفة الرمزية للغة هى العلة الكافية التى تُحدد وجودنا (و وجود الذات المتحدثة)، و تتحكم اللغة فى كل أنشطتنا، فبالكلام يصير اللاشعور شعوراً، و على ذلك فإن فهم هذه البنية (اللغوية) هو المدخل الحقيقى لفهم الذات الإنسانية فى شعورها، و فى لا شعورها، من خلال عملية (حل الشفرة) الخاصة ببنيته، التى من أهم خصائص (لغة اللاشعور) الاستعارة و

---

(١) زكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " ص ص (١٢٢ – ١٧٠).

الكناية. فالاستعارة تقابل الكبت (فتحل لفظ محل لفظ آخر)، و الكناية تقابل التحويل (بأن يشير الجزء إلى الكل)، و من هذا المنطلق للتحليل اللغوى يُمكننا (على حد قول لاكان) أن نفهم منطق التحليل النفسى. و على ذلك نجد أن بنيوية لاكان، هى نزعة لا إنسانية، لأنها تضحى بالذات (تقضى على الإنسان) لصالح البنية اللاشعورية، التى هو نتاج لها، و تلك وجهة نظر (فرضية تساعد على استمرار البحث)، و ليست نظرية نهائية للتحليل النفسى للاشعور.[1]

٦. و أخيراً نجد تطبيق البنيوية فى مجال السياسة، أو البنيوية الماركسية التى وضع دعائمها "لويس ألتوسير"، من خلال إعادة قراءته لأعمال كارل ماركس (مؤسس الماركسية)، و خاصة كتاب ماركس (رأس المال)، قراءة ذات طابع علمى لا أيديولوجى، مما منح الماركسية النظرية الأبستمولوجية (المعرفية) التى كانت تحتاجها (أو تستحقها) من وجهة نظر ألتو سير. و كانت الخطوة الأولى، هى تخليص الماركسية من الجدل الهيجلى، و الخطوة الثانية، اكتشاف الدور الإبستمولوجى (المكون الثقافى المعرفى العام المعاصر)، الذى لعبته البنيوية (كنسق) فى تفكير ماركس العلمى، خلال المرحلة الأخيرة من تطوره العقلى، و من هذا المنطلق ينبغى أن تُقرأ الماركسية، فهذه القراءة ستحل الشفرة و تتجاوزها إلى مدلولها، فماركس لم يُكَوّن إشكاليته الخاصة (قضاياه و الموضوعات التى تناولها)، إلا من خلال كشفه للألاعيب اللفظية، التى انطوت عليها إشكاليات من أخذ عنهم، و استشهد بهم (دون إدراكهم أو وعيهم أنفسهم بمكونات تلك الإشكاليات)، و إذا كان أهم ما فى الماركسية مقالها الأيديولوجى (حيث قالت بالمراحل الخمس، التى يمر بها أى مجتمع)،

---

(١) المرجع السابق : ص ص (١٧٢ – ٢٠٩).

ومقالها العلمى (حيث ركزت الاهتمام على العامل الاقتصادى)، فإن أهم إنجازاتها (كما يرى ألتوسير) أنها استطاعت أن تنقل الفلسفة من الوضع الأيديولوجى إلى الوضع العلمى، من خلال المادية الجدلية (التى ترتكز على فكرة المجالات فى كافة المستويات)، فكل مستوى من الممارسة يُعد بنية مستقلة نسبياً (كما يرى ماركس من خلال قراءة ألتوسير له)، ويتحدد الكل الاجتماعى بالبنية المعقدة، المكونة من علاقات الترابط المنتظم للمستويات البنيوية كلها، وليست الممارسة الاقتصادية هى المُحدد الوحيد للبنية ككل، و إن كان العامل الاقتصادى (وسائل و سبل الإنتاج) من أهم مُحددات (المؤثرات) البنية الكلية للمجتمع، و على ذلك فقد جعل ألتوسير الواقع (و تغير المجتمع) فى نظر الماركسية، ليس جدلاً طبيعياً بل بنيوياً.

ويرى ألتوسير أن مفهوم الإنسانية غريب عن الماركسية كمفهوم الفرد تماماً، حيث لا تهتم بماهية تلك الموجودات، لأن مفهوم الطبيعة البشرية من المفاهيم المثالية التى رفضها ماركس فى مرحلة متقدمة من تطوره الفكرى، و على ذلك فالا إنسانية هى شرط الإمكانية المطلق للمعرفة الإيجابية للعالم البشرى، أما الإنسانية فهى فلسفة أيديولوجية ترفضها الماركسية (من منطلق تغير الأيديولوجية بتغير قيم المجتمع)، ولكنها لا تختفى من المجتمع، لأنها نتاج بنية تحكم ظهورها، و على ذلك فوجودها لا يشكله وعى المجتمع ؛ بل تظل موضوعاً (أيديولوجياً) يمكن إدراكه ضمن موضوعات(علاقات عناصر بنية) المجتمع. و على ذلك نجد أن الأيديولوجيا كظاهرة لا تُدرك شعورياً إلا بشرط أن تُكَوّن (تفهم و تُحدد) لا شعورياً، وأيضاً يُسقط الفكر الماركسى التفرقة التعسفية التى كانت بين العلم و الفلسفة

(الأيديولوجيا) من منطلق أن معرفة الواقع الاجتماعى (كعلم)، و العمل على تغييره (بالأيديولوجيا) يمثلان وحدة لا انفصام لها فى الفكر الماركسى.[١]

وبعد الكشف عن دور اللغة فى عملية المعرفة فى الفصل السابق نحاول فى هذا الفصل الكشف عن جذور الحداثة، و ذلك بعدما كشفت دراسة و بحث نقاط الفصل السابق عن الدور المهم للغة فى عملية المعرفة، حيث اعتمدت الحداثة اللغة كنموذج معرفى، و منهجى صالح للتطبيق على معظم العلوم الإنسانية، و كان واضحاً للعيان التدرج فى تطور جذور تلك الأفكار، التى أنتجت فى النهاية لغويات الحداثة، و ما بعدها. و كان نفس الوضوح لفحص الجذور الأولى للحداثة، منذ بذورها التى كشفنا عنها فى الفصل الأول.

وبنفس النهج فى الكشف عن تلك الأفكار التى مهدت للحداثة، بحيث أضحت تلك الأفكار هى الجذور الفلسفية لما أنتجته الحداثة (و ما بعد الحداثة) من نظريات فى النقد الأدبى و الفلسفى، فبالرغم من إنكار مفكرى الحداثة و ما بعدها للتراث الفلسفى الغربى (تلك الجذور)، و ادعائهم التجديد، و قطع صلتهم بكل قديم من النظريات السابقة، إلا أن عملية الكشف عن تلك الجذور ليست لكشف زيف ادعائهم و تناقض أفكارهم، بقدر ما هى عملية تأصيل (رد أفكارهم للأصول الأولى) تكشف عن سبب توافق بعض إنجازاتهم الفكرية، مع التراث الذى خرجت منه (وهم فى نفس الوقت ينكرون صلتهم به) مثل :

١. وحدة النفس البشرية (لدى ليفى ستراوس)، و التى منها نستنبط و حدة بنية الإدراك البشرى، و تتبعاً للتحولات النسقية لمنهج التفكير[١]، نجد أن المنهج

---

(١) المرجع السابق : ص ص (٢١٢ _ ٢٥٨).

لم يتغير و لكن علينا فقط رصد تلك التحولات، التى أدت فى النهاية لانبثاق النسق المعرفى السائد الآن، فتلك التحولات لا تعنى فصل جذور الحداثة عن ما أنتجت بقدر ما تؤيد التأثير و التواصل و تعزى التغيير إلى التحول الحاصل.

٢. قولهم (ميشيل فوكوه) بالحقب المعرفية، و بتميز كل حقبة بطابع معرفى معين، و بالقطع و الفصل المعرفى بين تلك الحقب، و لكن ترتيب تلك الحقب بشكل حلزونى يعنى أن كل حقبة متقدمة تبدأ من حيث انتهت سابقتها، و هذا يعنى أن هناك ضرورة منطقية،هى التى تحكم ترتيب ظهور وتوالى تلك الحقب المعرفية تباعاً على الفكر البشرى، لأن التراكم الكمى للمعرفة البشرية هو الذى يُحدث التغير النوعى للمعرفة البشرية، فتأتى تبعاً لذلك الحقب المعرفية مختلفة و متغيرة[٢]. فمن هذا المنطلق نبحث نحن عن خطوط التواصل بين الجديد و القديم الذى ساهم (كامتداد أو نقض) لينتج الجديد الذى ميز الحقب الراهنة عن سابقتها.

٣. مطالبتهم منذ الرمزيين وكانط بضرورة نقد المعرفة، و الثورة على التقاليد، وضرورة التجديد، والخروج على المألوف، و مثل تلك الدعوات تؤكد أننا حتماً سنجد خيوط تربط الماضى بالحاضر، حتى لو أنكر المحدثون ذلك، فهم قد يكونوا مؤمنين بأن خروجهم على التقاليد، و المألوف قد قطع كل صلة تربطهم بالماضى، و نحن نراهم حتى فى خروجهم مازالوا ضمن نفس المضمار، يحرثون بنفس اللغة و المنهج النقدى

---

(١) عبد الوهاب جعفر : " البنيوية فى الانثروبولوجيا و موقف سارتر منها " دار المعارف الإسكندرية، طبعة عام ١٩٨٩م، ص (١٥٠، ٢١٨).

(٢) عبد الوهاب جعفر : " البنيوية بين العلم و الفلسفة عند ميشيل فوكوه " دار المعارف، الإسكندرية، عام ١٩٨٠م، ص ص (١٢١-١٢٤).

الأرض التى ظنوا أنهم غادروها، أليس النقيض عندهم حاضراً بسلب صفاته عن نقيضه المذكور ؟ (المختار من الجدول الاستبدالى)، و لهذا فنحن نكشف عن تلك الجذور المختفية (كأصل مُستبعد لأفكارهم المُحدثة).

٤. نظرة البنيوية و ما بعدها (دريدا) إلى اللغة على إنها هى التى تقول و تهب الوجود حتى لذواتنا، و هى التى تحدد معرفتنا، و ما أدت إليه تلك النظرة من أفكار، مثل موت المؤلف و التناص و البينصية، فكل هذا يجعلنا نساوى بين النصوص و الأفكار و بعضها، من حيث الكيفية التى أنتجتها (و ذلك بحسب وجهة نظر المحدثين)، فنلاحظ التدرج فى تطور الأفكار، من خلال تعقب تراكيب اللغة التى تظهر من خلال نصوص سبقت نصوص المحدثين فى الظهور.

وبالطبع هذا ما يجعل من البنيوية موضوع هذا الفصل حلقة أو محطة ضرورية، فهى تعد بوابة الحداثة أو أولى نظرياتها، و هى فى الوقت نفسه البوتقة التى أنصب فيها كل المخزون البشرى السابق على الحداثة، و فضلاً عن كونها أتت لتنفى ما سبقها من نظريات للنقد (مدرسة الشكليين الروس و النقد الجديد)، و تتعايش مع الوجودية، و حاملة شعلة تطوير الدراسات و النموذج اللغوى عن فردينان دى سوسير.

وهنا نتساءل عن جدية و أهمية بحث العلاقة بين أفكار النقد البنيوى و أفكار كانط المذهبية، و فى هذه المرحلة من تتبع جذور الحداثة نُريد أن نبحث عن ما إذا كان هناك ثمة تواصل بين أفكار كانط المذهبية و أفكار رواد البنيوية ؟ و هل ساهمت أفكار كانط المذهبية فى تشكيل الفكر و النهج البنيوى ؟ و هل هناك أفكاراً سبق بها كانط البنيويين ؟ و إذا ثُبتَ حقاً صحة هذا التواصل فهل سيكون هذا دليلاً كافياً على أن للبنيوية جذورً كانطية مهمة؟ كل

تلك الأسئلة سنحاول الإجابة عنها من خلال بحث نقاط هذا الفصل،و لسنا هنا بصدد دراسة مقارنة لمجمل أفكار كانط المذهبية مع أفكار البنيوية ؛ بل سيكون بحثنا منصباً على محاور ثلاثة لنكمل ما بدأناه من تتبع لجذور الحداثة و هى :

المحور الأول: (أهمية المشروع البنيوى فى فكر الحداثة و ما بعد الحداثة)، و من خلاله نستعرض أهم أسس و مبادئ البنيوية التى مهدت بها لما بعدها من جهة، و من جهة أخرى نوضح بالغ الأثر الذى مثلته البنيوية، كمرحلة بزوغ و تأسيس و انتشار لمفهوم الحداثة و تحديث مجتمعات غير غربية، بالرغم من كونها لم تشغل الساحة الفكرية أكثر من عقد من الزمان، إلا إننا قد نجد لها تأثيراً يتخطى عصرنا هذا.

المحور الثانى: (الجذور البنيوية و التواصل الكانطى)، و نبحث من خلاله تلك الأفكار الفلسفية، التى تطورت منذ كانط ليظهر صداها لدى الفكر البنيوى، و كذلك الأسس المنهجية التى يمكن أن يُعزى الفضل فيها لكانط.

المحور الثالث: (إخفاقات و إسهامات البنيوية)، و نستعرض من خلاله أهم الأفكار التى كانت سبباً فى انحسار (إخفاق) التيار البنائى، و كذلك أهم الأفكار التى ساهمت بها فى النظريات المنبثقة عنها.

وفى نهاية بحثنا لنقاط هذا الفصل نعقب و نقيم أهم نتائج بحثنا فيه، و الآن ننتقل لبحث أولى نقاط هذا الفصل.

أولاً : أهمية المشروع البنيوى فى فكر الحداثة و ما بعد الحداثة :

نستعرض هنا أهم الأفكار التى جعلت من البنيوية حجر الزاوية، فهى كنظرية فى النقد الأدبى تمثل الحداثة، و تفصل فى نفس الوقت بين ما قبل الحداثة عن ما بعدها، و ذلك من خلال النقاط التالية : -

أ ـ أهمية النهج البنيوى كمحور أساسى للربط بين ما قبل و ما بعد الحداثة :

يفرض علينا البحث، فى هذه الأفكار بأن نتعامل معها ببصيرة ذات بُعد نظر و أفق رحب، يتسع لملاحظة و تتبع تطور الفكرة قبل البنيوية (كجذور للبنيوية و ميراثها عن السابقين)، لنتعرف على ما فعلته بها رحى النسقية البنيوية، وكيف خلفتها كميراث لما بعد البنيوية، كى يتضح لنا مكانة البنيوية كمركز محورى، و مفصلى فى تغير خارطة الفكر الغربى.

و من نظريات الفكر الغربى المتشابك فى تلك المرحلة المفصلية، نكشف عن بعض الأفكار التى استمدتها البنيوية كنظرية فى النقد الأدبى، من النقاد الجدد و من الشكليين الروس، الذين يمثلون الحلقة الأخيرة المسيطرة قبل الحداثة، و البنيوية جاءت لوضع نهاية لسيطرة النقد الجديد، و كنقض لنظريات النقد السابقة عليها.

و من أهم تلك الأفكار (التى أخذتها البنيوية عن سابقاتها) بعض الأفكار التالية:

١. موت المؤلف و بداية سلطة النص : شعارات رفعتها الحداثة و ما بعدها، و روج مفكرو الحداثة لها على إنهم ابتدعوها، مؤكدين ثورية و جدة أفكارهم

على أى فكر سابق عليهم، فبالرغم من هذا إلا إننا نجد بعضاً من أفكارهم سبقهم إليها النقاد الجدد، مثل (موت المؤلف، وبداية ظهور سلطة النص) هى أفكار أخذ بها النقاد الجدد، وطبقوها على مقاربتهم للنصوص، لأن "هذا إلى حد كبير ما ينادى به النقاد الجدد. فالشعر يدور حول ((التجربة)) الإنسانية، و التنظيم الشعرى لها، سواء جاءت عن طريق الإدراك الحسى أو التفكير. و فى مقارنة مع معادلة علمية صرفه يشبّه إليوت(*) العملية الإبداعية بأنها عملية تنظيم، أو تركيب للتجارب الإنسانية المفردة، سواء جاءت من الداخل، من الأرشيف الذهنى للشاعر، أو عن طريق الإدراك الحسى، و هى تقدم فى النهاية شكلاً جديداً، لا علاقة له بذات المبدع أو ذات المتلقى "(١)، و هذه نفس الفكرة التى ستورثها البنيوية لما بعدها (فالبنيوية ترى أن ليس للكاتب أى دور بعدما أنهى علاقته بالنص بمجرد انتهائه من تأليفه، فالأنساق وعلاقات الوحدات ببعضها هى فقط التى تُحدد المعنى، بعيداً عن قصدية أو شخصية المؤلف، من هنا جاءت البنيوية بفكرة موت المؤلف)، ليفيد منها التفكيك بصيغة (قطع علاقة النص بكل من المؤلف و المتلقى)، فالنص فى النقد التفكيكى وحده هو الذى يحدد المعنى بما يحتوى من تركيبات داخلية لا يؤثر عليها أى عنصر خارجى، و بنفس الكيفية أفادت الظاهراتية من نفس الفكرة (فأخذت بالاهتمام بظاهر النص أو القصيدة، من منطلق أن النص هو الذى يبوح، أو يلقى معناه على المتلقى، كعملية إسقاط للمعنى الظاهرى بوصفه صورة كلية جاهزة، تنطلق من النص، و لا تحتاج لتأويل أو تفسير)، مما لفت نظر أصحاب نظرية التلقى(٢) لأهمية المتلقى كعنصر

(*) إليوت، ت. س. (١٨٨٨-١٩٦٥ م) شاعر و ناقد إنجليزى، يعتبر أبرز ممثلى الشعر الحر.

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (١٣٥).

(٢) نظرية التلقى تجعل من القارئ هو الذى يستنتج المعنى بحسب ما يتلقى من النص، حتى وصل بهم الأمر أن جعلوا للقارئ سلطة تُشبه سلطة المؤلف عند تحديده لمعنى نص فالمتلقى وحده

فعال و مهم فى عملية النقد الأدبى، و ذلك بالرجوع فى تحديد المعنى إلى ذات المتلقى كمؤلف جديد للنص، من خلال تركيبه للمعنى بحسب ما يتلقاه من النص.

أما بالنسبة لبداية ظهور سلطة النص، و توجيه الدلالة فقط لداخل النص، نجد "أن النقاد الجدد(*) فى حديثهم المتكرر عن اللغة، يرفضون القيمة الإحالية للغة الشعرية، فاللغة الشعرية فى رأيهم ليس لها قيمة مرجعية، تتمثل فى الدلالة على شىء أو أشياء خارجية. الدلالة كلها تقع داخل نسق القصيدة والبيت ".(١)

و من هنا كانت بداية ظهور سلطة النص (بمعنى أن النص بتركيباته، يملك داخلياً ما يُؤهله لفرض معناه على المتلقى ؛ بل النص وحده هو صاحب حق تقرير المعنى)، وهذا ليس اكتشافاً خاصاً بالبنيوية، أو الحداثة لأنه يظهر من "مناقشة موقف النقاد الجدد من المعنى أو الدلالة و أهمية آرائهم باعتبارها علامة بارزة فى الاتجاه المتنامى، الذى بدأ

هو القادر على تحديد المعنى بحسب ما يلقيه إليه النص من معنى مُفتت يعمل القارئ على تركيبه، و من أقطاب التلقى " ولفجانج إسر " و " جادامر " و " فيش " و هم معاصرون متخصصون فى النقد الأدبى.

(*) مثل إليوت و تلميذه كلينث بروكس، و الفيلسوف الجمالى والناقد التعبيرى الإيطالى بندتوكروتشه، و رتشارذز الذى يُمثل البدايات الأولى للنقد الجديد مع التأثر الواضح بالدراسات النفسية الجديدة و هو أهتم كثيراً باللغة و المعنى فى كتابه : " معنى المعنى "١٩٢٣م و مبادئ النقد الأدبى ١٩٢٥م و من أهم أفكار، أن الشعر لغة و اللغة معنى فى شفرة، تم يأتى نورثورب فراى ليمثل مرحلة نضج النقد الجديد و التمهيد للبنيوية خصوصاً بكتابه " تشريح النقد ١٩٥٧ م .

(١) المرجع السابق : ص (١٤١).

بدراسات ((فرديناند دى سوسير)) نحو تطوير علم اللغة، ثم و هو الأهم، قيمة ما حققه النقاد الجدد فى التمهيد للبنيوية و ما بعدها".[١]

إذن السبق لفكرة سلطة النص هو للنقاد الجدد، و من بعدهم أخذت البنيوية نفس الفكرة، حيث النص يحتوى داخلياً على المعنى، من خلال العلاقات الموجودة بين عناصر النص أو العمل الأدبى، كنسق مغلق . باستثناء البنائية الماركسية التى تربط النص بالنسق التاريخى أيضاً –، و هى نفس الفكرة التى أثرت فيما بعد البنيوية، كما فى التفكيك، حدود النص و التناص و استقلال النص كبناء منتهٍ، أو عمل مُنجز، و كذلك توارثت الظاهراتية و نظرية التلقى نفس الفكرة، حيث النص هو الذى يولد أو يعكس المعنى الداخلى له على السطح، أو على ذهنية المتلقى، فالنص هو الذى يفرض المعنى. [٢]

٢. التزامن و القراءة التشخيصية : أن الدراسة الحالة (التزامنية)، والقراءة التشخيصية للنص، لتعدان من أهم أسس النظرية البنيوية لمقاربة النص بطريقة علمية، و حتى نظريات نقد ما بعد الحداثة ستظل تأخذ بنفس تلك الأسس.

فنجد أن كلاً "من البنيوية و التفكيك برغم اختلاف النتائج التى توصل إليها كل منهما، فإنهما سيعتمدان على القراءة اللصيقة ((**close reading**)) للنص، التى تعتبر من أبرز إنجازات النقد الجديد و جوهر ((المقاربة)) الحديثة للنصوص الأدبية ؛ بل إن مفهوم التقاليد نفسه كما يقدمه إليوت فى مقاله الشهير عن ((التقاليد و الموهبة الفردية))، حيث يقول:

---

(١) المرجع السابق : ص (١٣٨).

(٢) المرجع السابق : ص (١٣٩).

إن ((كل الأدب... له وجود متزامن و يكوّن نظاماً متزامناً)) ؛ هذا المفهوم يعتبر تمهيداً مبكراً للبينصية **Intertextuality** [١]، الأمر الذى سيباهى به التفكيكيون كل من سبقوهم من النقاد الحداثيين و غير الحداثيين".[٢]

٣. البناء والشكل، ومنهج تحليل علاقات العناصر: أسهمت مدرسة الشكليين الروس التى تبلورت فى روسيا، خلال العشرينيات من القرن العشرين – على الرغم من تأخر ترجمة أعمال روادها، إلى أن ظهرت البنيوية – فى تشكيل العديد من مفاهيم البنيوية، و التى منها فكرة البناء، أو الشكل، أو هيكل النص أو القصيدة، و كذلك طريقة تحليل علاقات العناصر المحددة لشكل أو بناء النص، فنجد المدرسة الشكلية قد ركزت "على دراسة الشكل الأدبى و دلالاته، و كانت تحليلاتها لمفهوم الشكل قريبة جداً من مفهوم البنية.

يمكن أن يكون مصطلح البنية قد ورد عرضاً فى دراسة الشكليين الروس خاصة،عند تحليلهم للنظم الإيقاعية فى الشعر و لطبيعة النثر، ولغير ذلك من القضايا المرتبطة بطبيعة الأدب و أدبيته ".[٣]

ومن مبادئ المدرسة الشكلية أن "يتركز النقد فى دراسة الأدب باعتباره ظاهرة قائمة فى لحظة معينة تمثل نظاماً شاملاً... و من هنا سنجد أن

---

(١) البينصية هى التناص و معناه أن كل نص هو عبارة عن تداخل لنصوص أخرى لأن اللغة بتركيباتها هى التى تظهر فى النص و نفس تلك التركيبات ظهرت و ستظهر فى نصوص= =عديدة فمن خلال هذه التركيبات سيتكون معنى هذا النص الذى سيختلط بأثر من المعانى التى سبق و شاركت بها نفس تركيبات اللغة فى نصوص أخرى.

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة "، ص (١٣٩).

(٣) د / صلاح فضل " مناهج النقد المعاصر " دار الآفاق العربية، طبعة أولى عام (١٩٩٧م، ١٤١٧ هـ)، ص (٨٣).

العنصر الجوهرى فى العمل الأدبى هو الذى لا يرتبط بالجانب الخارجى، سواء بالمؤلف أو سياقه النفسى، ولا بالمجتمع و ضروراته الخارجية، و لا بالتاريخ و صيرورته، و إنما يرتبط بما بدأ البنيويون يسمونه بأدبية الأدب أى تلك العناصر التى تجعل الأدب أدباً".(١)

وهنا أيضاً نجد البنيوية قد استفادت من مبادئ الشكليين الروس، من حيث الشكل (بنية النص)، و طرق تحليل علاقات مكونات البنية، وجعلتها من أهم مقوماتها فى مقاربة النص الأدبى ؛ بل و ورثتهما للنظريات النقدية التى أعقبتها، و خصوصاً الظاهراتية التى واكبتها و ازدهرت بعدها.

ومن هنا يتضح الثقل الذى تمثله البنيوية كمرحلة حاسمة، يتم من خلالها تحويل مسار الفكر الفلسفى من النظرة الشمولية للحياة، إلى النظرة النقدية للأدب و الإبداع و اللغة كمسعى لبلوغ العلمية، و كوجهة نظر قد تبلغ فهماً أفضل للحياة الإنسانية من خلال دراسة عملية النقد و الإبداع الأدبى من منظور لغوى.

و"معنى هذا أن نظرية الأدب ابتداء من البنيوية قد أصابها تحولاً جذرياً ؛ فلم تصبح نظرية فى الحياة و إنما أصبحت نظرية فى ظواهر الإبداع الأدبى، من منظورها اللغوى و الفنى و الجمالى، تندرج طبقاً لذلك ضمن الفلسفة العامة التى تأسست عليها تيارات العلم الحديث... و التى تتميز – على وجه التحديد – بحذفها للجانب الميتافيزيقى الغيبى فى دراسة الأشياء و تركيزها على الجوانب التى تتجلى للإدراك، أى على الظاهر فى لحظة معينة".(٢)

---

(١) المرجع السابق : ص (٨٧، ٨٨).

(٢) المرجع السابق : ص (٩٠، ٩١).

ونأمل من هذا العرض السابق، أن نكون قد أوضحنا الدور المهم الذى لعبته البنيوية، كحجر زاوية أحدث تحولاً هائلاً فى مسار الفكر الغربى، و كيف كانت تربة خصبة لجذور الحداثة و ما بعدها، من خلال الأمثلة السابقة لأفكار النقاد الجدد و الشكليين الروس، و كيف تغذت و تغذى من بعدها بنفس الجذور، نظريات ما بعد الحداثة فى النقد الأدبى، فلولا مجهودات النقاد الجدد و الشكليين الروس، ما ظهرت البنيوية و ما بعدها بمثل تلك المبادئ التى تنتهج التجريبية فى سعيها لتحقيق العلمية.

وننتقل الآن لبحث البنيوية و أدواتها النقدية لمقاربة النص الأدبى و العمل الفنى.

ب- أهم المبادئ و القواعد البنيوية لمقاربة النص الأدبى :

كانت نتائج دراسات سوسير اللغوية، قد توصلت إلى أن الفكر قبل دخول البنية اللغوية يشبه سحابة غير محددة الملامح(*)، فلا وجود لأفكار واضحة تسبق اللغة. ثم لكى تحقق الدراسات اللغوية علميتها تبنت المنهج التجريبى، و لكنها رفضت تجريبية لوك فى مفهوم العلامة اللغوية (أى رفضت الارتباط بين الدال و الشىء الخارجى أو المفهوم – المدلول – الذى يشير إليه الدال مكون العلامة) و أخذت بعشوائية العلاقة بين الدال و مدلوله، أو اعتباطية الارتباط. ثم تأتى الثورة الروسية (عام ١٩١٧ م) لتروج لأفكار ماركس و إنجلز فى التفسير المادى للوجود و المعرفة، و هذا سيؤثر مستقبلاً فى تأسيس بنيوية ماركسية، تؤثر فى التيار البنيوى الرئيسى، و تثير الكثير من الجدل الذى سيستمر لنهاية البنيوية. و يتزامن ذلك مع ظهور

(*) فرديناند دى سوسير : " علم اللغة العام "، ص (٢٨، ٥٢، ١٣٢) .

الشكلية الروسية، التى أعطت دفعة للدراسات اللغوية التى بدأها سوسير، مقيمة بذلك أول جسر بين البنيوية اللغوية و البنيوية الأدبية. (١)

ثم تأتى الحرب العالمية الثانية ليزداد المد الماركسى داخل أوربا، من خلال توحد معسكر الفكر الغربى و الفكر الماركسى فى مواجهة النازية، و هذا التقارب سيؤدى إلى ظهور أقطاب البنيوية الكبار فى فرنسا، بعد فشل النقد الجديد فى تأسيس نظرية لغوية متكاملة، و بذلك يُفسح الطريق للتيار البنيوى المتنامى، و فى هذه اللحظة يبدأ عصر البنيوية، عصر سيطرة التحليل اللغوى على مجمل الفكر و الثقافة الإنسانية. (٢)

١ – كيفية مقاربة النص بنيوياً:

يبدأ التحليل اللغوى لبنية النص بالحروف (الفونيمات)، لرصد تجميعها فى وحدات ذات معنى (الكلمات)، ثم ينتقل من تجمعها فى نسق (يسمى أصغر) مكوناً الجملة، و هو أول نسق ينتظم حسب النسق العام للغة (و هو قواعد النحو) التى تحكم علاقات الوحدات ببعضها، و تحدد أيضاً معانى الوحدات، و من خلال علاقات الوحدات تتم الدلالة، سواء دلالة النسق الأصغر (الجملة)، أو دلالة النسق الأكبر (النص) الذى تتم دلالته من خلال تجميع الأنساق الصغرى و علاقاتها ببعضها، من خلال مبدأ اتفق حوله البنيويون يسمونه مبدأ (التضادات الثنائية) **(binary oppositions)**. فبدون النسق العام المسبق للغة لا تتم دلالة الجملة و لا دلالة النص. و هناك نسق رابع يسمى النسق العام (اللون)، و هو نموذج النوع علمى كان (كالسياسة أو الفيزياء) أو أدبى أو (كالرواية، أو الشعر و له أنواع – رومانسى، غنائى،

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٥١، ٢٥٢).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٥٢).

روائى، ملحمى – أو نثر أو قصة قصيرة)، و يُرجع إليه لمعرفة مدى اتفاق، و اختلاف النص المفرد كنسق أصغر مع النسق العام الذى ينتمى إليه، و الذى يُمثل النموذج العام لنفس العلم أو اللون الأدبى. (١) (٣)

و هنا يظهر اختلاف البنيوية اللغوية عن البنيوية الأدبية (التيار الرئيسى)، و عنهما البنيوية الماركسية، و مرجع الاختلاف هنا فى طبيعة النسق العام (للون)، الذى يحدد ويحكم الدلالة فى النسق الأصغر والنسق الأكبر معاً.

٢ – الاتجاهات البنيوية المختلفة:

فنجد مثلاً البنيوية اللغوية (لدى فردينان دى سوسير فى مجال الدراسات اللغوية) تطبق نموذج اللغة العام، لأنها تعمل على النص العلمى التقريرى، ذات الدلالة المحددة و المقصودة، و التى فى نسقها العام للعلم الواحد يتساوى شقى العلامة الدال مع المدلول، فى عملية إشارة الدال لمدلول محدد مسبقاً بنظام اللغة العام. (٢)

أما فى البنيوية الأدبية (لدى كل من ليفى ستراوس فى تحليله للأساطير و ميشيل فوكوه فى دراسته التحليلية للثقافات الإنسانية) فترى اختلاف طبيعة النص الأدبى(الشعرية)، عن طبيعة النص العلمى (التقريرية)، و هذه البنيوية تحتم تطبيق نموذج اللون الأدبى الذى ينتمى إليه النص، والذى يتسم بمرونة تسمح له باستخدام قواعد اللغة مع تقنيات أدبية خاصة بإنتاج هذا اللون من الأدب (كالجناس، و الاستعارات، و الكناية، و التشبيه)، وغيرها من أساليب و صياغات تسمح بإنتاج العديد من المعانى المحتملة للدال

---

(1) Art Berman, : " From the New Criticism to Deconstruction " (Urbana: U of Illinois P, 1988) , p.123.

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٥٤).

الواحد. فلا يرتبط الدال بمدلول واحد معين (فيجمد أو يموت دلالياً)، و إنما قد تنعقد بين الدال و مدلول محدد علاقة محتملة تظهرها مقاربة ما، أو قراءة ما، و لكنها ليست نهائية لأنها تتغير بحسب تفسيرنا للعلاقات التى بين الوحدات، و أيضاً للتى بين الأنساق الصغرى و بعضها مكونة النسق الأكبر. و المعنى هنا إيحائى محتمل نسبى، و يتغير من مقاربة لأخرى. (١)

أما البنيوية الماركسية (كمحاولة لويس ألتوسير إعادة قراءة أعمال ماركس، بنظرة ترتبط بالتفسير التاريخى للمفاهيم، من خلال مراحل تطور البنية الثقافية، التى أفرزت تلك المفاهيم) فهى تتفق كثيراً مع البنيوية الأدبية، إلا إنها ترى ضرورة ربط النسق العام بالنسق التاريخى، أى أنها تتبنى نظرة تاريخية لتفسير التغيرات التى تطرأ على النسق الأدبى نفسه من مجتمع لآخر أو من وقت لآخر. أى أن البنيوية الماركسية تأخذ بالدراسة الحالة (التزامنية) مع الربط أو عدم إهمال الجانب التاريخى، الذى قد يفسر مصدر الوحدات اللغوية تاريخياً أو قد يرصد تطورها، أى أنها تأخذ بالمحورين الأفقى و الرأسى معاً. (٢)

و على هذا نجد أن الاتجاه الرئيسى للبنيوية الأدبية بالتزامه بالدراسة الحالة، هو الذى يشغل و يسيطر على الساحة الفكرية أكثر من غيره، فبالرغم من الجدل الدائر حول أهمية المحورين التعاقبى و الاستبدالى (الأفقى و الرأسى)، إلا أن التنكر العام فى الفكر الغربى للتفسير التاريخى أودى بالبنيوية الماركسية لصالح البنيوية الأدبية، التى تطبق مبادئ النموذج اللغوى. و لذا ستكون البنيوية الأدبية هى المنبع الأساسى لجذور نظريات نقد

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٣٧).

ما بعد البنيوية، و سيتحول الفكر الفلسفى منذ البنيوية للبحث اللغوى، كنموذج أمثل للبحث فى الأنساق الأدبية و الثقافية الأخرى.

٣- المحوران(الرأسى والأفقى) ودورهما فى انتقاء وحدات النسق:

و هى مكمن الخلاف بين الاتجاهين البنيويين (الأدبى التيار الرئيسى و الماركسى)، و تتلخص المشكلة فى أى المحورين مؤثر أكثر من غيره، فى تنظيم علاقات وحدات النص داخل النسق الأصغر و الأكبر.

والمحور الأفقى يمثل الكيفية التى تتولى و تتابع بها وحدات الجملة، (من مبتدأ و خبر و فعل و غيره، مما ينتظم فى كل لغة بحسب قواعدها النحوية لتركيب الجملة)، وليس هناك خلاف على هذا المحور بين الاتجاهين، فالخلاف بينهما على المحور الرأسى أو الاستبدالى، و هو يمثل المخزون البديل للوحدة أو الكلمة المذكورة فى النص[١]، (فمثلاً جملة"هبط الليل "نجد فى المحور الاستبدالى أو الجدولى العديد من البدائل الممكنة للوحدة الأولى، مثل جاء أو نزل أو دخل أو حل، و غيرها من المتناقضات معها أو الشبيه صوتياً لها، و أيضاً نجد بدائل للوحدة الثانية مثل الظلام أو السواد أو العتمة أو المساء أو النهار أو النور أو الفيل)، و لكن انتقاء وحدة معينة من بين البدائل الممكنة هنا يساهم إلى حدٍ ما فى ترجيح معنى على آخر، قد يُكَوّن (هذا المعنى أو يُغيره) دخول أى من البدائل الأخرى فى علاقة مع وحدات النص.

وفى هذا تنحصر قيمة المحور الاستبدالى من وجهة نظر البنيوية الأدبية، أى أن الاختيار أو الانتقاء هنا يخدم المعنى و يحدد صورة محتملة أكثر من غيرها، و ذلك لورود تلك الألفاظ فى النص دون سواها.

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٥٨).

ولكن وجهة النظر الماركسية ترى أن الاختيار أو الانتقاء من المحور الاستبدالى يتم وفقاً للظروف الاجتماعية و التاريخية و تعبر عن البيئة المحيطة بالمؤلف، و تُرَجح البنيوية الماركسية أهمية هذا المحور فى تحليل المعنى على المحور الأفقى الذى تحكمه القواعد النحوية لكل لغة. و الاتجاه البنيوى الأدبى لا يهمل المحور الاستبدالى[١]، ولكن يأخذ به بمعنى أن الاختيار يتم وفقاً لتقنية أدبية سواء على مستوى الإبداع أم على مستوى التحليل النقدى.

٤- مفهوم العلامة اللغوية بنيوياً:

العلامة هى جوهر اللغة البنيوية، حيث تحمل على أحد وجهيها الدال و على الآخر المدلول، و يتم بها الدلالة (توصيل المعنى)، فى عملية تسمى التدليل، و العلامة قد توجد على شكل كلمة أو جملة أو نص، أو عمل فنى كلحن موسيقى أو لوحة أو تمثال. [٢]

ومفهوم العلامة بنيوياً يختلف عن مفهومها السابق عليها أو الكلاسيكى، أى إنها لم تعد تشير إلى شىء خارجى مادى ترجع إليه العلامة اللغوية، بل أضحت تعنى وجود دالٍ (مادى) يُشير إلى مدلول (ذهنى) تربطهما علاقة عشوائية. و للعلامة ثلاثة أنماط : (العلامة الأيقونة) حيث تشبه العلامة مرجعها التى تشير إليه كصورة القطار، و(العلامة الإشارية) التى ترتبط سببياً بمرجعها مثل الدخان علامة إشارية على وجود النار، ثم (العلامة الرمزية) و هى التى ترتبط عشوائياً بمرجعها، و هى العلامة اللغوية التى تهمنا هنا كمحور لدراسة اللغويات البنيوية الأدبية. [٣]

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٥٩ _ ٢٦٢).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٦٤).

(٣) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٦٥ _ ٢٦٨).

"و تجدر الإشارة هنا إلى أننا نتحدث عن العلامة المفردة، صائتة (صوتية) أو مكتوبة، و أن النسق اللغوى يبدأ حينما يتم الربط بين هذه الوحدات المفردة داخل نسق هو الجملة الكاملة أو مجموعة من الجمل، قلّت أو كثرت، هى الأنساق الصغرى التى تكوّن فى اتحادها نسقاً أكبر هو النص. و هذا ما نسميه فى نهاية الأمر النظام اللغوى".(١)

وكما قلنا العلامة هى اتحاد الدال بالمدلول، فنجد "أن الدال لا يمثل مشكلة للتفسير، فسواء كان الدال وحدة لغوية أو نسقاً، أو وحدة بنائية **mytheme** أو نسقاً أدبياً، فهو ثابت يمكن التأكد منه. لكن المدلول هو المشكلة بالنسبة للمفسر البنيوى. فالدال الواحد قد يحمل مدلولات مختلفة لشخصين مختلفين، بل إنه قد يحمل أكثر من مدلول لنفس الشخص فى فترات أو أوقات مختلفة. على هذا الأساس فإن بنيوية ستراوس ترحب بتعدد التفسيرات و ترفض التفسير الواحد الموثوق".(٢)

٥- الخصائص المميزة للبنية:

تعتبر البنيوية الأدبية أن كل نص أو عمل أدبى هو بنية مستقلة، و لابد لها من خصائص ثلاث هى التى تحددها كبنية، وهذه السمات هى (الكلية) و (التحولات) و (التنظيم الذاتى).

و(الكلية) تعنى أن ننظر للنسق ككل مستقل بصفاته المميزة عن خصائص عناصره المفردة، و هو لا يمثل مجموع خصائص عناصره ؛ بل له خصائصه التى تميزه كوحدة واحدة مترابطة. و (التحولات) تعنى أن النسق ينطوى على ديناميكية ذاتية تتأثر بالتغيرات الداخلية فقط فى نمط

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٧١).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٧٦).

العلاقات التى بين عناصر البناء، أى قابلية البنية للتحول تبعاً لتغير علاقات عناصرها الداخلية بعيداً عن المؤثرات الخارجية. و(التنظيم الذاتى) للبنية يعنى أن لديها نظاماً داخلياً يحفظ نظامها و يحفظ بقاءها و يشبه انغلاق ذاتى على نفسها و ذلك لأن لها قوانينها الخاصة التى تحكم بناءها و علاقاتها الداخلية المستقلة عن العوامل الخارجية حتى المشتركة فى تكوينها. (١)

وعلى ذلك نجد "أن البنية تحمل – أولاً و قبل كل شىء – طابع النسق أو النظام. فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أى تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولاً فى باقى العناصر الأخرى".(٢) و هى بذلك ذات طبيعة لا شعورية لأنها "حقيقية دون أن تكون واقعية ؛ مثالية (أو عقلية) دون أن تكون مجردة".(٣) و سمات البنية تلك هى التى تفرض على البنيوية الأدبية ضرورة الدراسة الحالة أو التزامنية، لما لمكوناتها من طبيعة علائقية خاصة.

٦ – مبادئ البنيوية الأدبية:

من أهم المبادئ التى يتسلح بها الناقد البنيوى هى : أولاً أنه يدرس البنى اللاشعورية أو التحتية التى أفرزت الظواهر و ليس ظاهر الظواهر، ثانياً دراسته تنصب على علاقات العناصر ببعضها ككل، وليس على العناصر فى ذاتها أو مفردة، ثالثاً أن اهتمامه يتركز على النسق و اكتشاف النظام أو الهيكل و الإطار العام، رابعاً أن يسمح مستوى تحليله للعلاقات بأن يستنتج القوانين العامة المسيرة للبنية من خلال الاستقراء و الاستدلال.

---

(١) د / ذكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " مشكلات فلسفية (٨)، مكتبة مصر، القاهرة، ص ص (٣٣ _ ٣٤).

(٢) المرجع السابق : ص (٣٥).

(٣) المرجع السابق : ص (٣٨).

وعلى هذا نجد أن تلك المبادئ هى : أن"(١) البحث البنيوى يدرس البنى التحتية اللاواعية للظواهر و ليس طبقاتها الظاهرة أو الواعية ؛ (٢) يتعامل مع الألفاظ فى علاقاتها بعضها بالبعض و ليس باعتبارها كيانات مستقلة ؛ (٣) يركز دائماً على الأنظمة أو الأنساق ؛ (٤) يؤسس القوانين العامة مستخدماً الاستقراء أوالاستدلال لتحديد الهوية المطلقة لهذه القوانين".[١]

وتجنباً للإطالة و التكرار، نكتفى بهذا القدر من البحث فى مكونات البنيوية كنظرية فى النقد الأدبى، و نأمل أن يكون مفهوم البنيوية كنظرية نقدية قد اتضح من خلال عرضنا هذا و لما تناولناه فى هذا الفصل وما سبقه، عن البنيوية.

وننتقل بعد ذلك لبحث بعض الأفكار التى سبق بها كانط البنيوية، لنرى ما إذا كانت تلك الأفكار يمكن أن تمثل تواصلاً لأفكاره مع أسس وثوابت النقد البنيوى ؟.

ثانياً : الجذور البنيوية و التواصل الكانطى.

مما سبق تتضح أهمية البنيوية، التى تتمثل فى موقعها الاستراتيجى، من حيث كونها معقل الحداثة، و بيت القصيد الذى منه تتفرع و تتقاطع أفكار مؤثرة جداً فى الفكر البشرى، سواء سابقة أو لاحقة على البنيوية، لذى سنركز على الأفكار الأساسية التى تُوضح كيفية تأثر البنيوية ببعض أفكار كانط و التى يمكننا تقسيمها كالآتى:

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٠٥).

أ ـ أفكار فلسفية و أدبية.

١. كانت فكرة كانط عن المعرفة النقدية(*) هى بداية الانفصال بين الفيزيقى (الطبيعى المحسوس) و الميتافيزيقى (المعقول)، أى بين الخارج (العالم المحسوس) و بين الداخل (الذات العارفة)، و من هنا ظهرت ثنائية بين الداخل (داخل الذات الإنسانية) و بين الخارج (العالم الخارجى)، وهى نفس الفكرة التى أخذ بها (أو ظهرت لدى) سوسير والبنيويين من بعده(**)، و هى

(*) هى المعرفة التى تأخذ بالعقل – و قدراته – و بالحس – التجريبى – معاً، بمعنى أن العقل يستمد معارفه اللازمة عن العالم الخارجى من الحواس التى من خلالها يتم اتصاله بالعالم الخارجى، و مفهوم النقدية هنا يعنى الشك فى قدرة العقل وحده على تكوين معرفة عن العالم، و هذا يعنى ضرورة اختبار معارفنا دوما من خلال مطابقة العقل بالمعطيات الحسية الخارجية و لا نكتفى بالأفكار العقلية السابقة عن العالم الخارجى، ذلك لأن معرفتنا بالعالم الخارجى هى معرفة متغيرة و ليست ثابتة، و هذا هو سبب تفرقة كانط بين ما هو طبيعى خارجى و بين فكرتنا عنه حيث فكرتنا عن هذا الخارجى تحتاج دوماً لما يؤكدها كمرجع لصحتها و ضمان لصدقها، و تلك كانت بداية ظهور ثنائية الخارج (الأشياء الطبيعية) و بين صورتها الذهنية (فى داخلنا عنها) .

(**) من أهم ما قدمه " سوسير " للدراسات اللغوية فصله بين الدال و مدلوله حيث وضح أن علاقتهما ليست طبيعية أو حتمية أو نهائية و إنما هى علاقة عشوائية (بحسب ما اصطلح عليه أبناء مجتمع اللغة)، و هنا ظهرت ثنائية الدال و المدلول، و أيضاً ظهرت ثنائية _ هى أقرب لثنائية كانط – هى بين الموجود الحسى الطبيعى و بين صورته الذهنية التى يُشير إليها الدال الرمزى، و من هذه الثنائية يستفيد البنيويون ليستنتجوا ثنائية جديدة (ثنائية الخارج و الداخل) فى مجال النقد الأدبى للنص، حيث يرون أن هناك خارج النص (عوامل _ مثل المؤلف و حياته و ظروف عصره و سماته الشخصية _ كان يرى السابقون أن معرفتها تساعد الناقد على معرفة معنى النص و لكن لدى البنيويين تنقطع علاقة النص بخارجه بمجرد اكتماله كنص، حيث المعنى الذى يصدر من داخل النص) و داخل النص الذى يمثل بنية مستقلة هى السلطة الوحيدة التى يصدر عنها معنى النص، و فى هذا يُراجع عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص ص (٨٥ – ٨٨).=

= Art Berman : " from the New Criticism to Deconstruction " (Urbana u of Illinois P.1988) p p .178-179. .

التى فصلت الدال (الرمزى) عن المدلول (الذى يُشير إليه أو الصورة الذهنية الداخلية عنه)، و ميزت بها كذلك بين عالم الأفكار الذهنية (الداخلى)، و بين الوجود العينى (الخارجى) للأشياء المعبر عنها.

فنجد أولى نقاط التقاء البنيوية بكانط هى نقد المعرفة، و الشك المنهجى الذى أدى إلى ظهور ثنائية الداخل و الخارج فى نظرتنا للغة و الأدب تبعاً لذلك، و هذا "ما ترتب على رحلة الشك تلك من جدل بدأ بالنزعة التجريبية عند ((جون لوك)) والمثالية الترنسندنتالية عند ((عمانويل كانط))... لقد أدت رحلة الشك هذه إلى ظهور ثنائية جديدة لم يعرفها الإنسان فى عصور التوحيد بين ما هو فيزيقى و ما هو ميتافيزيقى، بين الأشياء و أدوات التعبير عنها، و نعنى بها ثنائية الخارج والداخل، أى القول بوجود عالم خارجى يرى المنادون بحقيقته أنه مصدر المعرفة، وعالم داخلى يحتوى فقط على النموذج أو النماذج العليا للمعرفة الإنسانية، وهى ثنائية أدت بطريقة حتمية إلى ظهور ثنائية مماثلة فى تفسير وظيفة اللغة وتحديد معنى النص الأدبى".[1]

٢. من سجن العقل إلى سجن اللغة، فإذا كان الإنسان و معارفه رهن العقل لدى كانط، فإن العقل و معارفه رهن اللغة لدى البنيويين، و من بعدهم.

فإننا نجد "الحديث عن سجن اللغة، أو القول بأن اللغة قد أصبحت فى الرؤية البنيوية سجناً للعقل، بعد أن أصبحت هى أداته الوحيدة للمعرفة، بل محتوى العقل ذاته... فهى مجرد تحريف لصورة أخرى سابقة طورها نقاد

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية " ص (٦٩، ٧٠)، و يراجع أيضاً ، د / نجيب بلدى : " دروس فى تاريخ الفلسفة " إعداد الطاهر و عزيز _ كمال عبد اللطيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٧٨ م، ص (١٠٩، ١١٠).

فلسفة كانط المثالية حيث أصبح العقل من وجهة نظر الرافضين لمثالية الفيلسوف الألمانى، سجناً للمعرفة... فالمعرفة عند المثاليين والبنيويين على السواء غير ممكنة من دون العقل".[١]

حقاً قد يكون العقل هو أهم مصدر (أو منفذ) لتَكوّن المعرفة بما له من قدرات و أدوات لتحصيلها (بخلاف الوحى و الحدس و الإلهام)، و لكنه يستمد مادة المعرفة من عالمه الخارجى و الداخلى (حيث يتأمل ذاته و يتعرف على قدراته)، لهذا نرى أن العقل ليس سجناً للمعرفة بل قد يكون سجيناً لمعارفه، و أيضاً قد لا يصدق على اللغة لفظ (سجن المعرفة)، لأن اللغة هى وسيلة الإدراك البشرى، و أداة تعبير و تواصل لنقل و تحصيل المعارف (التى منها كيانات و خصائص و حالات و زمان و مكان) التى تختلف فى طبيعتها عن اللغة (الرمزية)، التى تُشير باختلاف تركيباتها الرمزية إلى معارفنا، التى على منوال اختلافها جاء اختلاف تركيبات و رموز اللغة، بنظامها الذى يوفر لنا الأداة المناسبة لتنظيم و إدراك و تكوين المعرفة البشرية المتغيرة، على العكس من اللغة الثابتة، و على ذلك فاللغة هى سبيلنا للإحاطة بالمعرفة (بمعنى إدراكها)، و واضح أن اللغة لا يمكن أن تكون سجناً للمعرفة لأن المعرفة خارج اللغة و رموزها (حيث أننا لا نتعرف مثلاً على معنى و خصائص و كيان الأب من لفظ الأب الذى اعتدنا على أن نطلقه على هذا الكيان أو المعنى الذى نقصده، و هذا اللفظ بحروفه الرمزية و تركيبه اللغوى لا يُنتج معنى و لا معرفة، و إنما يُشير فقد لمعنى منفصل عنه هو جزء من منظومة معرفية عامة للبشر)، و وجهة نظرنا هذه لا تقلل من شأن التشابه (أو التواصل) القائم بين اهتمام كانط بالعقل كمصدر أساسى للمعرفة، و بين اهتمام البنيويين باللغة كمصدر وحيد للمعرفة.

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٤٩).

٣. فكرة النظام الذى يسيطر على العالم، و الذى يفسر حركة الكون و يجعلها منطقية، و التى يرجعها كانط إلى العقل، الذى يفرض هذا النظام على العالم، بينما ترى البنيوية أن هذا النظام هو من خصائص البنية العامة للعالم أو النسق العام، بينما يطوره التفكيكيون بأنه النظام اللغوى الذى يحكم و يظهر من خلاله العالم و الوجود.

و هذا يفسر قولنا بوجود ما "يعود إلى الفيلسوف الألمانى كانط، بفكرته المهمة عن امتلاك الإنسان لملكات عقلية يضفى بواسطتها النظام على العالم ".(١)

و تظهر أهمية النظام الذى يُضفه العقل حين يُدرك الأشياء على الحدوس التجريبية (إحساسه بالعالم الخارجى) من خلال تميز كانط بين الشعور الواعى و الشعور التجريبى، "الذى يصاحب الحدوس المتعددة، و الذى هو فى ذاته متعدد (غير مرتب) و لا تربطه علاقة تنظيمية (إدراكية) مع الذات (المُدركة)، و لا تنشأ هذه العلاقة مصاحبة للشعور بكل حدس (منفرد) و إنما فقط حين تربط الذات حدساً بأخر (مما يكون على علاقة به)، حتى تكون الذات واعية بتأليفها جميعاً".(٢)

أى يجب أن تنتظم المعطيات الحسية (العشوائية) بحسب النظام التركيبى (لمقولات الفكر فى العقل النظرى)، الذى يسمح (بتركيب الأفكار و المعارف) للذات العارفة لكى تعى بهذا النظام، إنها هى التى تُدرك (فتشعر بذاتها و تُدرك أنها هى التى تركب تلك الأفكار) عن العالم

---

(١) إيان كريب " النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس " ترجمة د / محمد حسين غلوم، مراجعة د/ محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد (٢٤٤)، الكويت فى أبريل ١٩٩٩ م، ص (١٩٦).

(2) Kant, Immanuel., : " Critique of Pure Reason " B trans.by N. Kemp Smith, Macmillan, London, 2nd . imp.,reprinted 1961, p132.

الخارجى، الذى تؤلف الذات من معطياته الحسية أفكاراً و معارف، و هنا تكمن حقيقة الثورة (التى تشبه الثورة الكوبرنيقية) التى أحرزها كانط على الفلسفات السابقة (التى كانت ترى أن العالم هو الذى يدور حول الذات العارفة، بمعنى أن الأشياء هى التى تبعث (أو تعكس) معطياتها الحسية على العقل البشرى فيدركها)، و لكن كانط فى نقده للعقل النظرى أبرز الدور المهم للعقل فى عملية تركيب المعرفة من خلال تنظيم العقل للمعطيات الحسية الواردة إليه من العالم الخارجى عن طريق الحواس الخمس، و بفعل إرادة الإدراك التى هى من قدرات العقل و الخبرات السابقة يقوم العقل بتنظيم المعطيات الواردة (فبنظام العقل فقط يمكن للذات أن تُدرك)، مركباً معلومات و أفكاراً حتى يتسنى للذات العارفة أن تدركها، فليس للعقل وحده القدرة على تركيب المعارف و الأفكار من دون المعطيات الحسية التى تمده بها الحواس عن العالم الخارجى.

و على هذا فنحن نُدرك الأشياء الخارجية على حسب إمكانيات و قدرة عقولنا المحدودة، و على ذلك فنحن لا ندرك الأشياء فى ذاتها ؛ بل ندرك الظواهر التى منها نستدل على الأشياء بما يتناسب مع قدراتنا العقلية، و يتضح هذا من خلال تمييز كانط بين عالم الأشياء فى ذاتها (أو عالم الحقائق)، و بين عالم الظواهر الذى هو موضوع إدراكنا. (١) (٥).

و من فكرة كانط عن النظام الذى يفرضه العقل على المعطيات، و العالم الحسى لكى يُدركه، نجد البنيويين يؤكدون على فكرة ضرورة النظام لقيام المعرفة البشرية، و لكنهم يرون هذا النظام هو من خصائص بنية العالم، و ما على العقل سوى اكتشاف هذه البنية.

---

(1) Ibid.p306.

٤. بنية الفكر و مركزيته، و هنا نجد البنيوية و هى تميط اللثام عن المسكوت عنه فى فكر كانط، أو فلنقل تكشف عن ما غمُض من عباراته، فالبنيوية تردد نفس ما قاله كانط عن بنية الفكر، و لكنها تنقل مركزية هذا الفكر من العقل عند كانط إلى اللغة، و هى المركزية التى يحاربها التفكيكيون و يحاولون الخلاص منها.

فكانط يرى "أن الإنسان لا يعرف من الطبيعة إلا بقدر ما يركب، و بالتالى بقدر ما يصنع فكرياً... و هكذا نعتبر أن المركز و الأساس هو العقل العارف، بدل الأشياء. ثم نحاول بعد ذلك أن نتبين ما يستطيعه هذا العقل و ما لا يستطيعه ".[١]

و هذا نفس ما تراه البنيوية بالنسبة للغة، فبقدر ما ندرك من تركيبات اللغة اللانهائية، تكون معارفنا بما حولنا و بذواتنا، فاللغة بدلاً من العقل (لدى كانط) هى التى تُحدد و تكون أفكارنا و معارفنا بمجرد ظهور تركيباتها.

٥. صورتا الزمان والمكان لدى كانط، و كيفية فرضهما على العقل بشكل كلى عام، فصورتهما "تأتينا من أشياء نجهلها، و هى بالتالى مختلفة عنا، إنهما صورتان كليتان بالنسبة لجميع البشر، أنهما كيفية عامة و قانون عام للتأثر" [(*)] [(١)] و هذا يتفق مع فكرة البنيوية بأن اللغة هى التى تفرض على

---

(١) د / نجيب بلدى : " دروس فى تاريخ الفلسفة "، ص (١٠٤)، يراجع للمزيد أ . د / على عبد المعطى : " اتجاهات الفلسفة الحديثة " دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، عام ١٩٩٣ م، ص (٣٩٧)، و د / محمود زيدان " كنط و فلسفته النظرية " ط ٣ عام ١٩٧٩م دار المعارف بالإسكندرية، ص (١٢٦، ١٥٤، ١٥٥).

(*) بمعنى أن تأثير صورتا الزمان و المكان فى فكر جميع البشر (شعورنا بهما و حاجتنا لهما لتنظيم معرفتنا) لا يختلف من شخص لآخر، فهذا الانعكاس لصورتهما فى نفوسنا يأخذ صفة العمومية و كأنه قانون عام يعترف به و يطبق على جميع البشر بنفس الكيفية .

العقل (من الخارج) بنية المعرفة و نماذج الفكر، كأنساق جاهزة سابقة التركيب، و ما على العقل سوى الكشف عنها فقط، و يمكن أن نرجع إلى كانط فى هذه الفكرة أيضاً، تلك الفكرة التى يتردد صداها فى قول البنيويين (ميشيل فوكوه) بالحقب المعرفية، حيث تتميز و تتكون معارف كل حقبة بشكل بنيوى يكون كنسق خاص، و مميز لتلك الحقبة عن غيرها (سبق و عرضنا ذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى).

٦. فكرة الفن للفن بعيداً عن أى غاية سوى مطابقة النسق العام للون الأدبى(**)، ذلك الشعار البنيوى الذى يمكن رده لآراء كانط حول نقد الحكم الجمالى، الذى يرى "أن المتعة الجمالية لا تتوقف على عنصر خارجى صرف، أعنى على مادة الموضوع الجميل، بل هى تتوقف على شرط باطنى صرف، ألا و هو التوافق الصورى لملكة الحكم مع المخيلة".(٢)

ويضرب لنا كانت أمثلة عديدة، مستقاة من فنون متنوعة لكى يوضح أن بيت القصيد فى العمل الفنى ليس هو استثارة الحس عن طريق التزيين أو التلوين أو الزخرفة، أو ما إلى ذلك، و إنما هو تقديم الصورة النقية الخالصة التى تروقنا لبساطتها و صفائها.. و هكذا يخلص كانت إلى القول بأن

---

(١) المرجع السابق : ص (١٠٨)، و يراجع أيضاً، د / محمود زيدان : " كنط و فلسفته النظرية " ص ص (٨١ –٩٠)، و أ . د / على عبد المعطى : " اتجاهات الفلسفة الحديثة " دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، عام ١٩٩٣ م، ص (٤١١، ٤١٢).

(*) سبق و وضحنا فى بداية هذا الفصل كيف أن البنيوية الأدبية تقطع صلة النص بكل ما هو خارجى، فلا غاية من الأدب و الفن سوى الأدب و الفن كعمل مستقل لا ينبغى أو يكون وسيلة لغاية أكبر، فالفن هو غاية فى حد ذاته، حيث يلتزم الفنان أو الأديب فقط بالقواعد الفنية التى تُحدد سمات إنتاج هذا الفن و تُميز، عن غير، من الفنون .

(٢) د / ذكريا إبراهيم : " كانت أو الفلسفة النقدية " عبقريات فلسفية (١)، دار مصر للطباعة بالقاهرة، ص (١٩١).

الجمال هو صورة الغائية فى موضوع ما من الموضوعات، من حيث هى مُدركة فيه دون تصور لغاية (خارجية كمنفعة أوملائمة).[١]

٧. ثنائية (الطبيعة / الثقافة) و هى من أبرز أفكار أنثروبولوجيا ليفى ستراوس البنائية – كما سبق أن تناولناها بالتفصيل فى مستهل هذا الفصل –، و هى نفس فكرة كانط عن "((الفن)) و ((الطبيعة)) فيقول إن الفارق بينهما هو كالفارق بين الصناعة المقصودة و النشاط التلقائى... و من هنا فإن لفظ ((العمل الفنى)) لا يمكن أن يصدق على الإنتاج الطبيعى، أو الآثار الطبيعية مهما كان من جمالها و دقة صنعها ؛ بل هو يصدق فقط على المنتجات البشرية التى صدرت عن تأمل فكرى، أو عن إدراك سابق لغاية مصورة أُريد تحقيقها ".[٢]

٨. و حتى عملية التقريب ما بين (الطبيعة / الثقافة)، أو إزالة الحدود التى يلجأ لها ستراوس، فى تبريره لعادة تحريم زواج المحارم، ونفس التقريب نجده لدى كانط، حيث يرى "أنه لابد لقوانين الفن من أن تكون هى بعينها قوانين الجمال الطبيعى. و كما أن الطبيعة لا تكون جميلة إلا إذا استطعنا أن نكشف فيها ضرباً من الغائية، بحيث تبدو لنا و كأنما هى تحمل طابع الفن، فكذلك لا يكون الفن جميلاً،اللهم إلا إذا كان يحمل مظهر الطبيعة، مع كونه فى الوقت نفسه (فناً)". [٣]

---

(1) J . C. Meredith : " Kant `s Critique of Aesthetic Judgement " , Oxford Books, London, 1911, pp. 54 – 67.

(٢) د / ذكريا إبراهيم : " كانت أو الفلسفة النقدية "، ص (١٩٥).

(٣) المرجع السابق : ص (١٩٧).

٩. استبعاد الذات وموت المؤلف، قد يُعدان من إنجازات البنيوية إلا "أن أسس الحرب على الذات تعود إلى تعريف ديكارت لها و إلى تطورها(*) على يد كانط و الظاهراتية من بعد... ومهما يكن من أمر هذا ((الشيء)) فإنه كالمؤلف، أصبح يتحكم فى تحديد المعنى و قصده، و يوظف اللغة لخدمة قضاياه، و بقى المعنى حبيس هذه الذاتية، رغم الاختلافات التى حلت بهذا المفهوم. ومع التركيز على اللغة، ظهر أن الذات الواعية بذاتها لا تحكم شيئاً ؛ بل هى نفسها تخضع للغة ".(١)

ولدى كانط أيضاً نجد الذات "التى هى موضوع الحكم، ليست سوى الذات على نحو ما تعتبر نفسها كذلك، أى الذات على نحو ما تُدرك نفسها باعتبارها موضوعاً منطقياً لسائر تصوراتنا العقلية... إنه ليس لدينا أى حدس بنفسنا كذات مفكرة، و إنما كل ما نُدركه هو فكرنا فى صلته بالموضوعات لا باعتباره مستقلاً قائماً بذاته. و ما دام (الكوجيتو) (أو (أنا أفكر)) لا بد من أن يصاحب كل تصوراتنا، فحتى يخلع عليها الوحدة التأليفية اللازمة، فلا موضع إذن للقول بوجود شعور مفارق بالذات، أو نفس عاقلة قائمة بذاتها"(٢) وعلى

(*) طور كانت من نظرة الباحثين إلى الذات، بحيث أصبح ينظر إليها باعتبارها موضوع للدراسة بعيداً عن الذات الظاهرة فى الكوجيتو الديكارتى، فطور النظر إليها من كونها هى التى تُدرك بالفكر وجودها إلى كونها كائن يُدرك وجوده و يمكن ملاحظته من خلال الذات الظاهرة، فأخذ يدرس ملكات الذات العارفة من خلال نقد العقل العملى ثم نقد العقل النظرى ثم نقد ملكة الحكم، بعدما تحقق من أن للنفس (أو الذات) قوى أو ملكات ثلاث هى ملكة النزوع و ملكة المعرفة و ملكة الشعور باللذة و الألم، و لم يسق كانت إلى مثل هذه النظرة الموضوعية للذات أى فيلسوف من قبله و يراجع فى هذا د/ زكريا إبراهيم : "كانت أو الفلسفة النقدية " ص (٨٨، ٩٠) .

(١) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (١٥٠).

(2) Kant : " Prole`gome`nes a` toute me`taphysique future " , trad. Gibelin, & 46, Ide`e Psychologique, p p.113-119.

ذلك فالمعرفة تنشأ من صلة ملكات الذات من خلال الفكر بموضوعات أو معطيات المعرفة فليست الذات هى التى تُحدد الحكم أوالمعرفة ؛ بل هى ناتجة عن تأثر ملكات الذات بمعطياتها عن العالم الخارجى (أو الاستبطان الداخلى).

فكل من كانط و البنيويين يستبعد أن تكون الذات هى التى تُحدد المعنى أو المعرفة و الحكم عليها، و فى حين يرى كانط أن المعنى أو المعرفة تتحدد من اتصال ملكات الذات من خلال الفكر بمعطيات المعرفة، يرى البنيويون أن المعنى أو المعرفة تفرضها اللغة على العقل (أو ملكات الذات).

تلك كانت أهم المرتكزات الفكرية المشتركة بين كانط و البنيوية، و بقى أن نعرض لأهم الأسس و الثوابت المنهجية لكليهما.

ب- أسس و ثوابت منهجية

١. نماذج الفكر العليا و النسق العام البنيوى و استبعاد الذات : ألا يذكرنا نسق علاقات عناصر البنية الذى يستدل منه على فهم النص، أو كيفية عمل عناصر البنية، بالتصورات القبلية التى قال بها كانط حين تحدث عن المعرفة النقدية ؟.[١]

"فقد شرح لنا أن السبب الذى يجعلنا نفكر فى العالم تفكيراً علمياً لا يكمن فى كون العالم المادى عالماً رياضياً بقدر ما يكمن فى كون العقل الذى يقوم بعملية التفكير يفكر بطريقة رياضية. فالعقل آلة منطقية، تطبع الأفكار

نقلا عن ، زكريا إبراهيم : " كانت أو الفلسفة النقدية " ص (٩٠).

(١) عبد العزيز حمودة " المرايا المحدبة " ص (٦٩، ٧٠)، تم ذكر النص الذى يشير إليه الهامش رقم (١) بداية هذا الفصل.

العقلية تماماً كما تطبع آلة الطبع الكلمات... فأيا كان ذلك الذى يدركه العقل، و أيا كان ذلك الذى يقدمه العقل فى نهاية الأمر إلى نفسه، فهو دائماً منطقى و علمى ".[١]

وهذا التركيز الذى بدأه كانط على عمليات العقل فى المعرفة النقدية مثل قوله:" إننا حين نفكر إنما نفكر بفضل التصورات"[٢] فالتفكير هو القدرة على إنتاج التصورات وهذه القدرة هى العقل الفعال، و التصور هو "فكرة عامة تنطوى على خاصية أو خصائص مشتركة لأشياء عديدة مثل تصور اللون الأحمر... التصور محمول يعد كحكم ممكن"[٣] ، فإن كان كانط يُحل العقل بدلاً من الذات التى تمركز حولها الفكر الفلسفى الغربى قبله، فكانط بتركيزه هذا على العقل و عملياته، هو الذى جعل مجموعة بنيوية "مثل شتراوس و بارت و لاكان و فوكوه و ألتوسير ثم (التفكيكى) دريدا، يركزون على مناقشة تركيب العقل البشرى، و هم بذلك التركيز على تركيب العقل لا يتوجهون إلى تأكيد الذات، أو الحفاظ عليها حرة مستقلة ؛ بل إنهم فى حقيقة الأمر ينفون وجود الذات كنقطة انطلاق".[٤]

فنجد بنيوية فوكوه الثقافية انطلقت "من معادلة تقول أن البنية = اللاشعور = الرمز = النموذج = اللغة".[٥]

---

(١) جون لويس : " مدخل إلى الفلسفة " ترجمة أنور عبد الملك، دار الحقيقة بيروت،ط ٤،(١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م)،ص (١٢٤).

(2) Kant, Immanuel., : " Critique of Pure Reason " B trans. by N. Kemp Smith, Macmillan, p93.

(3) Ibid. p,94.

(٤) عبد العزيز حمودة " المرايا المحدبة " ص (٧٤).

(٥) زكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " ص (٢٦٠).

و هذا أدى إلى النزعة الإنسانية الغربية، التى خرجت على الفكر الفلسفى السابق (حيث تُضحى البنيوية بالإنسان الفرد فى سبيل إطلاق حرية العالم الذى لا يوجد إلا باللغة)، و انطلاقاً من وجهة نظر جديدة للإنسان و مفهومه، نجد البنيوية تؤكد حتمية موت (أو تحلل) الإنسان الفرد و تخليه عن دوره (المزعوم بحسب فكرهم) فى المعرفة، من أجل حياة أو ظهور دور النماذج البنيوية العليا (اللغة) التى تُحدد العالم بما فيه الإنسان و معارفه.

وهذا بدليل وجهة نظر البنيويين التى ترى "أن مفهوم الإنسان لابد أن يموت فى عالم البنيوية. و كما بدأ العالم بدون إنسان، فسوف ينتهى بدونه أيضاً. لم تعمل الإنسانية إلا على بث الاضطراب فى النظام الأصلى. إن موت (الإنسانية) يحمل فى طياته إيماناً خفياً بإنسانية جديدة تقدم العالم على الحياة".(١)

و بهذا يكون واضحاً لنا كيف نهج البنيويون نفس نهج كانط، فى استبعاد الذات الإنسانية، و تقديم العقل و تصوراته عليها عند كانط، و تقديم نموذج اللغة العام للعالم عليها عند البنيويين.

٢. كيفية تولد المعنى من النشاط الذهنى و التصورات القبلية لدى كانط، ومن تحليل علاقات عناصر البناء بالنسق لدى البنيويين، فقد رفض كانط أسلوب الواقعية "الساذجة الأرسطية(*)، و شبه الساذجة عند تجريبيى القرن

---

(١) المرجع السابق : ذات الموضع.

(*) ليس المقصود هنا التقليل من شأن الفكر الأرسطى، و لكن صفة ساذجة هنا تطلق على نظرية المحاكاة التى كانت تساوى بين الكلمات و الأشياء، و ذلك بأن ترط مثلاً كلمة تفاحة طبيعياً و وجودياً بذات التفاحة الموجودة واقعياً، و كأن الإنسان يعرف الأشياء فى ذاتها و ليس ما يعرفه هو صورة تمثلية عن هذا الشىء المسمى تفاحة بحسب خصائصها . من هنا جاء

السابع عشر، و التى تقصر المعنى و الدلالة اللغوية للنص على نظرية المحاكاة. و يرى كانط فى المقابل أن معنى النص يفهم فى ضوء النشاط الذهنى الذى يحدث داخل عقل الكاتب أو القارئ".[١]

تلك النقلة النوعية التى أحدثها كانط فى كيفية تكون المعنى أو المعرفة عموماً، من عالم الأشياء (الخارج) إلى عالم تصورات الذهن و عمليات العقل (الداخل)، و يستفيد البنيويون من نقل كانط المعرفة إلى الداخل، ولكنهم يسحبون هذا الداخل إلى داخل النص أو العمل الأدبى، و لكن يظل الإجراء نفسه، حيث يكشف عن المعنى لديهم من خلال عمليات تحليل علاقات عناصر البناء ببعضها و بالنسق الخاص والعام، و هذا لا يتم بالطبع إلا من خلال استنباط العقل لتلك العلاقات، من النماذج و الأنساق و المعادلات التى تشبه عمليات الجبر الرياضية.

"و حينما يقول بعض البنيويين بأن محتوى اللغة هو اللغة، فإنهم بذلك يبتعدون عن المفهوم الساذج الذى يرى اللغة أداة محاكاة، و تمثيل تُصور فيها الدالات دلالات موجودة خارجها".[٢] و سحب البنيوية هنا لعملية الكشف عن المعنى، أو كيفية تكوّن المعرفة (إلى داخل النص)، هو الذى مهد الطريق لدريدا و التفكيكيين عموماً للقول باستقلال اللغة، وسبق وجودها علينا وعلى كل موجود[٣]، وما ترتب على ذلك من نتائج ظهرت فى لغويات النقد التفكيكى، كما سنلاحظ ذلك بالتفصيل فى الفصل الرابع.

إطلاق صفة ساذجة على الواقعية البسيطة التى كانت ترى الأشياء فى الكلمات و كأن الكلمات وضعت و وجدت مع الأشياء .

(١) عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (١١٥).

(٢) المرجع السابق :ص (١٦٣).

(٣) المرجع السابق : ص (٢٥٦).

وهكذا نكون بعرض فكرة الفصل أو ثنائية الداخل و الخارج، الذى قال بها أولاً كانط، و هذا لتوضيح ما ينبغى علينا من التدقيق و تعميق النظر بنفس النهج، لتتبع و تجميع و تركيب الأفكار، التى تكشف عن باقى الجذور التى أسهمت فى تكوين فكر الحداثة وما بعدها، أليست تلك الفكرة (ثنائية الداخل و الخارج) تعد من زمرة الأفكار المهمة التى قام عليها نقد الحداثة و ما بعدها ؟ و هذا ينفى و يفند دعوى المحدثين بغرابة فكر الحداثة، و جدته، و انقطاع أى صلة بينه و بين الفكر الفلسفى السابق.

٣. الشك المنهجى ونقد المعرفة : إن الظروف التى أدت إلى البنيوية لشبيهة بنفس الظروف التى أتت بفلسفة كانط النقدية، و هى الشك و الجدل حول النظريات السابقة. فالبنيوية أتت كرد فعل، أو كرفض و شك فى قدرات النقد الجديد والشكليين الروس، و كانط خالف و شك و جادل كل من ديكارت وهيوم و لوك. ولا يخفى على أحد اتجاه كل من كانط والبنيويين إلى القول بالمعرفة النقدية، و التى تعنى نقداً للمعرفة و العقل و حدوده والكيفية التى تتم بها المعرفة.

فنجد مثلاً "كانط لا يعنى بكلمة ((نقد)) نقد الكتب و المذاهب المختلفة ؛ بل يعنى بها نقد قدرة العقل، و بيان حدوده، من أجل إعطائنا معرفة مشروعة... فالنقد هنا امتحان للعقل من أجل معرفة قدراته على المعرفة و تمحيص لقواه المختلفة، و اختبار لحدوده و مداه".[١]

و هكذا نجد كل من كانط و البنيوية صدرت نظرياتهم النقدية، كمحاولة علمية للخلاص من موجة شك عارم، و جدل عنيف حول حقيقة المعرفة،

---

(١) أ . د / على عبد المعطى : " اتجاهات الفلسفة الحديثة " دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، عام ١٩٩٣ م، ص (٣٨٩).

و لذلك نجدهم يقولون بالمعرفة النقدية، تاركين المجال للجديد من نظريات تنقد و تنقح نظرياتهم، و لم يقولوا بمعرفة حقيقية أو نهائية.

٤. الظاهر والباطن كمستويين للمعرفة : فالبنيوية قسمت الواقع إلى ظاهر و باطن، و رأت أن المهم هو إدراك هذا الباطن الذى يخفى الحقيقة التى لا تظهر على السطح، و لكن من أين أتت بتلك التفرقة التى أضحت من أسس المعرفة البنائية ؟

أليست تلك هى "التفرقة التى يقيمها كانط بين الحقيقة و الظاهر... و عندما تنطلق صيحة ألم، فنحن نؤمن أنها تشير إلى ألم حقيقى، لا إلى مجرد الظاهرة الموجودة فى عقولنا. أننا نميز بين الظاهرة و الحقيقة... و من ثم فإن المهمة الأولى للفلسفة بعد كانط لابد و أن تكون إزالة تلك الثنائية[١] الخاطئة التى أثقل بها كانط كاهل الفكر، و هى الثنائية التى أقامها بين الظواهر التى ليست حقيقية، و (الأشياء فى ذاتها)". [٢]

فمقابلة و تمييز كانط بين عالم الأشياء و عالم الظواهر، يعنى أن الشىء فى ذاته لا يكون موضوعاً لإدراكنا الحسى، أو موضوعاً لمعرفتنا التجريبية، فالمقابلة بين العالمين إنما هى مقابلة بين عالم الأشياء المحسوسة و عالم الأشياء المعقولة. [٣]

---

(١) الثنائية (Dualism) و هى التفرقة بين ما يظهر على سطح النص من عناصر و بين ما يحجبه ظاهر النص فى باطنه الذى فيه يعبر عن الحقيقة من خلال علاقات العناصر و هى ما سيقوم عليها التحليل البنيوى.

(٢) جون لوبس : " مدخل إلى الفلسفة " ص (١٣٠).

(3) Kant, Immanuel., : " Critique of Pure Reason " B trans. by N. Kemp Smith, Macmillan, p306.

و نفس النهج ينتهجه البنيويون، فنجد بنيوية ستراوس تستند "إلى تمييز بين المظهر والبنية أو بين الصورة و المضمون. و تكمن أصالة هذا التمييز فى الطريقة التى تصور بها العلاقة القائمة بين الصورة والمضمون، و من هنا تصير البنيوية نظرية فى المعرفة. (١)

و أهمية هذه الثنائية (تمييز كانط بين الظاهر و الباطن، من حيث إدراكنا لصورة الأشياء فقط دون ذاتها) تنبع من تأثيرها المستمر كعامل مشترك فى جميع مناهج نظريات النقد المعاصرة، تلك التى تمثل فكر الحداثة و ما بعدها (بنيوية، تفكيكية، تأويل، ظاهراتية)، و إن كان رواد تلك النظريات يختلفون فى تناولهم لتلك الثنائية، إلا أنهم جميعاً يتفقون على أن معرفتنا تقوم على صورة الأشياء، أو تصورنا عنها، و لا نملك معرفة حقيقية عن طبيعة الأشياء فى ذاتها. و قد سبق و أشرنا إلى هذا التطور (الذى أحدثته الحداثة) فى نظرية المعرفة فى نهاية الفصل الثانى، و سيتضح تأثر نظريات نقد ما بعد الحداثة بهذه الفكرة، من خلال دراستنا لعلاقة التفكيك بكل من التأويل و الظاهراتية فى الفصل الخامس من هذا البحث.

٥. انفصال الدال المادى عن المدلول الذهنى : و هى من أهم أسس لغويات البنيوية، و هى تعد نتيجة منطقية للفصل الذى أقامه كانط بين الظاهر و الباطن، و بين الصور و المقولات.

فنجد أنه "نتج عن موقف كانط هذا بعض النتائج... فالصور و المقولات التى بواسطتها تنظم الطبيعة، هى ملك للعقل و لا يمكن تغييرها. إنها فى حد ذاتها لا تصف أى شئ خارج العقل... و من ثم فإن المعرفة على

---

(١) زكريا إبراهيم : " مشكلة البنية " ص (٢٦٠).

الدوام معرفة علمية، بمعنى إنها تتكون من علاقات علية، أى أنها جزء من نظام مرتب ترتيباً منهجياً... فالعلم إذن هو إدخال النظام المنهجى على التجربة، على الظواهر لا أكثر و لا أقل ".[١]

أما بالنسبة لملكة المعرفة فيستدل عليها كانط بثلاثة "وظائف للعقل الإنسانى: القدرة الحسية (**sensibility**)، العقل الفعال (**understanding**) و العقل الخالص (**reason**)، يعنى كانط بالقدرة الحسية، ما بفضلها نستقبل الانطباعات الحسية، كما نستقبل صورتين قبليتين هما المكان و الزمان، و عنى بالعقل الفعال ما تصدر عنه التصورات القبلية – و ما ستسمى من بعد بالمقولات ؛ يعنى بالعقل الخالص ميلنا إلى التفكير فى المطلق وحقائق الأشياء ".[٢]

"و لكن حتى حين يتحدث عن الحساسية (الصورية)، فإنه يفرق بين صورة الحدوس الحسية و مادتها، على اعتبار أن ((المادة)) هى موضوع الإدراك الحسى، أو هى ما يقابل ((الإحساس)) فى الظاهرة، فى حين أن ((الصورة)) هى المبدأ الباطن فى الذات العارفة ".[٣]

و هذا يعنى "أن كل ما قصد إليه كانط من وراء هذا الاستنباط هو البرهنة على صحة القضية الأساسية التى تقوم عليها الفيزياء النيوتنية، ألا و هى أن للطبيعة قوانين، أو أن هناك علاقات كلية ضرورية قائمة بين الظواهر ... و إنما هى معنى أولى يربط عن طريق الذهن تلك الظواهر المتعاقبة فى الطبيعة، برابطة ضرورية حتمية".[٤]

---

(١) جون لويس : " مدخل الفلسفة " ص (١٢٩).

(٢) محمود زيدان : " كانط و فلسفته النظرية "، ص (٥٥).

(٣) د / زكريا إبراهيم : " كانت أو الفلسفة النقدية "، ص (٥٣).

(٤) المرجع السابق : ص (٧٢).

٦. المنهج العلمى وشجب الميتافيزيقا: نفس محاولة التمسك بالعلمية كمحاولة للتخلص من الميتافيزيقا (لعدم جدواها منهجياً)، نجدها لدى كل من كانط(*) والبنيويين(**)، "و هكذا اتخذ كانط من ((النقد)) منهجاً علمياً جديداً، وضعه فى مقابل الميتافيزيقا الكلاسيكية المدرسية، وقال: إن الفارق بينه و بين هذه الميتافيزيقيا القديمة... كالفارق بين علم الفلك و التنجيم ".(١)

وهما يتفقان أيضاً فى العودة للميتافيزيقا بعد رفضها طوعاً (كانط فى مجال الأخلاق)، أو دون قصد، (البنيوية فى تناولها لموضوعات ميتافيزيقية مثل تحليل الأساطير والتركيز على اللاشعور و إقصاء الشعور و الجنون و تفسير الأحلام).

ومن عرضنا السابق نأمل أن تكون صورة التقارب التى ننشدها بين المذهب الكانطى و الفكر البنيوى قد اتضحت من خلال الخطوط العريضة التى تطرقنا توا للكشف عنها كجذور فكرية ساهمت و أدت لظهور الحداثة وما بعدها.

إن شدة التشابه بين البنيوية و الكانطية، من حيث الأسس و الثوابت و النهج الثورى و المنطلقات الشكية ورغبة التغيير، كل هذا جعل مفكر

(*) عبر كانط عن رفضه لمنهج الميتافيزيقا فى مقال نشره عام ١٧٦٤ م عنوانه " بحث فى بداهة مبادئ اللاهوت الطبيعى و الأخلاق " و نشرت هذا البحث مجلة أكاديمية العلوم فى برلين، و يبدو واضحاً فيه ثورة كانط على الميتافيزيقا، وللمزيد وتفاصيل هذا البحث يُراجع كتاب د / محمود زيدان " كانط و فلسفته النظرية "، ص (٣٣، ٣٤) .

(**) رد ليفى ستروس على اتهام سارتر (له بأنه حسى) بأن هذا الاتجاه الذى ينتقده سارتر هو نفسه اتجاه رجل العلم الذى يؤمن بعدم جدوى الميتافيزيقا، وللمزيد راجع كتاب د / عبد الوهاب جعفر : " البنيوية فى الانثروبولوجيا و موقف سارتر منها " ص (٩٣) .

(١) المرجع السابق : ص (٢٣٢).

كـ (كريستوفر نورس) يؤيد رأينا ورأى "كوللر "حيث يذهب إلى "أن الكانطية من دون موضوع الإبهام ما هى إلا وصف يطبق غالباً على الفكر البنيوى من قبل أولئك المتشككين فى قدرتها، و تظهر مناقشات كوللر بوضوح قوة هذا الشعار حيث تتبدى مماثلة للفلسفة الكانطية القائمة على العقل و السبب".[١]

و ننتقل بعد ذلك لا لنقد البنيوية، بعد انحسارها من الساحة الثقافية، بل لنر نقاط الضعف التى أدت لفشلها، و فى نفس الوقت نرصد من جهة أخرى كيف أثّرت (أغنت) و أثّرت فى نظريات النقد التى أتت بعدها (نقد ما بعد الحداثة)، فنحن نرى من وجهة نظر خاصة أنه لولا البنيوية و نقلتها النوعية الهائلة، ما تمكن الفكر الغربى و لا البشرى من بلوغ صياغات ما بعد الحداثة من تفكيك أو تلقى أو ظاهراتية.

ثالثاً: إخفاقات و إسهامات البنيوية :

على الرغم مما أثرت به البنيوية على الفكر البشرى، إلا إنها لم تشغل الساحة الفكرية أكثر من عقد من الزمان، و سرعان ما انحسر التيار البنيوى بسبب ما لها من إخفاقات، و لكنها خلفت بصمة تعد نقلة نوعية فى الفكر الفلسفى، ولهذا نتناول ما لها و ما عليها فيما يلى:

أ- إخفاقات البنيوية:

١. عندما نقلت البنيوية المعرفة من سجن العقل(عند كانط)، إلى سجن اللغة[٢]، و ذلك أدى إلى تقليص دور الإنسان فى عملية تحصيل المعرفة، إلى مجرد متلقٍ لكم و كيف المعرفة التى تفرضها عليه اللغة. و فقد دوره

---

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق "، ص (٩).

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٤٩).

الإيجابى فى العملية المعرفية، مما كان تبشيراً مقصوداً "بموت الإنسان " و"أفول البشرية ". و هذا ما حدث فعلاً كنتيجة منطقية لما بدأه البنيويون، و أخذ به التفكيكيون و دفعوا به إلى أقصى مدى ممكن، فتلاشى الإنسان فى فكر ما بعد الحداثة، ليحل محله شبح اللغة الذى باتت بيده مقاليد الوجود.

والأخطر من هذا، و نتيجة مفزعة لما فعله البنيويون بالمعرفة نجد "أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة. و هكذا نصبح منطقياً سجناء داخل اللغة. و هى نفس المقولة التى يؤكدها كل من فوكوه... ففى لقاء أجرته معه مجلة **Quel Tel** الفرنسية التى أحدثت تأثيراً جذرياً فى الحياة الثقافية فى فرنسا، فى فترة المد البنيوى ومهدت للمشروع التفكيكى، يقول فوكوه: ((أعتقد أن عددا منا، بمن فيهم أنا، يرون أن الحقيقة لا وجود لها، و أن اللغة فقط هى الموجودة))". [١]

٢. انشغلت البنيوية عن تحقيق المعنى بالتمسك بالمنهج العلمى التجريبى، و صرامة قوانين البنية و دقة التحليل، حيث نجد أن الاتجاه العلمى الصارم قد قضى على المعنى، أى أن حرص البنيوية على تحقيق علمية الأدب، وتطبيق قواعد المنهج العلمى، شغلها عن الاهتمام بتحقيق المعنى.

وعلى هذا نجد "إن إخفاق البنيوية الحقيقى، و الذى تلتقى عنده ألوان القصور المختلفة فى التحليل البنيوى، هو عجز المنهج عن تحقيق المعنى على الرغم من أن محورى النقد الحداثى كله هما اللغة و المعنى ".[٢]

---

(1) Michel Foucault, : " The Order of things : An Archaeology of the Human Sciences " (New York : Vintage – Random House. 1973). P,297.

(٢) عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ، ص (٢٨١).

و حقيقة الأمر أن سبب إخفاق البنيوية هو نفسه سبب إخفاق كل نقد سينحو نحوها، لأن النزعة العلمية التى استمدتها البنيوية من النموذج اللغوى هى سبب هذا الإخفاق، و لكن القصور ليس فى النزعة العلمية بقدر ما هو فى كيفية و صلاحية تطبيق النموذج اللغوى على النص الأدبى ؛ لأن هذا التطبيق لا ينتج معنى، "فى الواقع هناك شبه إجماع بين الرافضين للمنهج البنيوى، بل بين بعض البنيويين أنفسهم على أن تطبيق النموذج اللغوى على النص الأدبى لا يحقق المعنى".(١)

٣. على مستوى المقاربة البنيوية للنص، نجد أن التحليل لا يُبقى من القصيدة الأصلية إلا على القواعد النحوية فقط، و يُنشئ الناقد بتحليله للقصيدة موضوع النقد قصيدة أخرى بعيدة عن فهم القارئ، وعن القصيدة الأولى.

لأن "ما يفعله البنيويان المعروفان(*) (ياكبسون و ستراوس) فى الواقع فى تحليلهما البنيوى على أساس النموذج اللغوى يعيد كتابة القصيدة، بل و يخلق قصيدة جديدة يعجز القارئ العادى عن التعامل معها. لكن الأخطر من هذا... أن ذلك التحليل لا يقدم لنا أكثر من نحو القصيدة".(٢)

٤. عدم صلاحية المشروع البنيوى للتطبيق على جميع الأنواع الأدبية، "فإنه كان دائماً من الناحية الشكلية على الأقل أقرب فى تطبيقه إلى الشكل السردى منه إلى الأنواع الأدبية الأخرى، خاصة الشعر. فالرواية و الشعر على طرفى نقيض".(٣)

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٨٢).

(*) المقصود هنا كل من ياكبسون عالم اللغة والناقد البنيوى و ليفى ستراوس .

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٨٣).

(٣) المرجع السابق : ص (٢٨٧).

وهذا يُعد من ثغرات البنيوية، حيث لا تصلح للتطبيق كنظرية نقدية على كافة الأنواع الأدبية، وإنما يقتصر تطبيقها على الرواية والأساطير فقط، وحتى على مستوى الرواية والأساطير لا تساعد على تحديد المعنى الحقيقى (المقصود لأنه مرفوض)، بل فقط تُبرز المعنى البنائى.

٥. مع قولهم بموت المؤلف، نجدهم أحلوا محله الناقد "فالفراغ الذى ولده موت المؤلف فى المشروع البنيوى شغله الناقد البنيوى الذى لبس مسوح الإبداع، ورفع شعارات اللغة الشارحة أو الميتالغة[١] و النقد الشارح أو الميتانقد[٢] ... أن البنيوية احتضنت مقولات معوقة حقيقية، حينما اتجهت اللغة النقدية الجديدة إلى لفت النظر إلى نفسها باعتبار أنها لا تقل إبداعاً عن لغة النص".[٣]

و معنى هذا أن البنيوية أقصت ذاتية المؤلف، و فى نفس الوقت أحلت محلها ذاتية الناقد و راحت تلفت النظر لتحليل الناقد البنيوى، مما أدى فى النهاية لرفض مشروعها لما فى تطبيقه من نقاط ضعف.

٦. الفرضيات الميتافيزيقية التى قامت عليها البنيوية، تعد خاطئة، لوجود أدلة قاطعة تؤكد عدم صحة تسليم البنيوية بها و التى منها:

أولاً : العالم باعتباره نتاجاً لأفكارنا عنه. (هذا لا يصدُق إلا بالتجريب و هو مستحيل نظرياً و واقعياً).

---

(١) هى اللغة التى تشرح النص، ويعدونها البنيويون لغة أرقى من اللغة التى كتب بها النص نظراً لوضوحها و مباشرتها وخلوها من الاستعارات وأساليب البلاغة.

(٢) هو شرح و تفسير النقد، بمعنى نقد النقد، لأن نقد النص أهم من النص نفسه، لذلك نجد نقد النقد هو أرقى من نقد النص، ويأتى فى مرتبة أو درجة أعلى من نقد النص، بمعنى النقد الذى يتعالى على الشرح المباشر للنص.

(٣) المرجع السابق : ص (٢٨٨).

ثانياً : العالم بوصفه نمطاً منطقياً. (هناك العديد من الحوادث كشواهد على عدم منطقية نظام العالم، منها المخلوقات المشوهة و الكوارث الطبيعية الغير مبررة).

ثالثاً : موت الذات. و هو المقصود من قولهم بأن البشر هم من صنائع أفكارهم، و أفعالهم و اختياراتهم و قراراتهم هى نتيجة للبنية الكامنة فى أفكارهم. [١](و مرد ذلك أن هناك إرادة للإنسان، هى التى تحكم صراعه مع الأفكار، و تجعل له ما يميزه عن الحيوان، من خلال إرادته فى حفظ نوعه، و تخطيط مستقبله و تطوير حاضره).

٧. نزوع البنيوية لاختزال الواقع إلى مستوى الباطن فقط، قد يخل بالدراسة، مما يجعلنا نهمل التفاصيل الثانوية، و تلك التفاصيل قد تكون مهمة لما ندرس، أو مهمة لتحديد معنى النص، "و نزعة الاختزال هذه، أى التغاضى عن الجوانب الثانوية و لكنها مهمة فى نفس الوقت لما ندرس... فيمكن على سبيل المثال، وصف العلاقة القائمة بين سلسلة العلاقات التركيبية و العلاقات الجدولية المتمثلة فى الأضداد بصورة معادلة جبرية "[٢]، و هذا يجعلنا نهمل من التفاصيل المهمة التى قد تفيد فى تفسير تفسير أى تحول يكون قد حدث للبنية.

٨. الدراسة الحالة للنص أو البنية، و التى تعد من أهم مبادئ البنيوية، تعجز عن تفسير التطور الذى يطرأ على مكونات البنية، حتى فى حديثهم عن

---

(١) إيان كريب " النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس " ترجمة د / محمد حسين غلوم، مراجعة د / محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٤٤، الكويت أبريل ١٩٩٩م . ص ص (١٩٨ _ ٢٠٠).

(٢) المرجع السابق : ص (٢١٦).

التحولات نجدهم لا يذكرون كيف تحدث تلك التحولات، و من أين أتت التغيرات لأى من عناصر البنية. [1]

ب- إسهامات البنيوية:

١. استقلال اللغة وآليتها وأولويتها فى المشروع التفكيكى، هذا مرده لما قدمته البنيوية من دفع للدراسات اللغوية، بما ورثته عن سوسير، فاللغة النظام والنسق العام للغة كل هذا كان بداية لانفصال اللغة عنا، وإن كانت موجودة وقتها فى اللاشعور، حيث تمثل الآخر لذواتنا، فأخرجها "دريدا "من اللاشعور، وجعلها هى التى تحدد كل شىء حتى اللاشعور.

فنجد أن "الآخر فى هذا السياق[*] عند (لاكان) هو اللغة. و الآخر هنا، أى اللغة يمثل قوة كبت، أو قهر مستمرة بسبب اعتماد الطفل المستمر على ذلك الآخر... لكننا فقط نريد التنويه إلى مفهوم لاكان، عن اللغة باعتبارها ((الآخر)) الذى يحدد حضوره ((الأنا)) أو ((الذات))". [2]

٢. لقد ساهمت الغويات البنيوية فى تشكيل لغويات التفكيكية، و خصوصاً حينما قال رواد البنيوية بفصل الدال عن مدلوله فى مفهوم العلامة، وأيضاً عندما وصل بهم الأمر إلى القول بأنه ليس هناك معنى موثوق به؛ بل هناك معنى نسبى أو محتمل، و "وصل الأمر بـ ليفى ستراوس إلى القول بأنه لا وجود للمدلولات، بل توجد دالات فقط. إذ إننا بمجرد تحديد مدلول ما، سرعان ما يتحول هو نفسه إلى دالة جديدة، تشير إلى مدلول

---

(١) المرجع السابق : ص (٢١٧).

(*) فى سياق حديثه عن كيفية تكون الذات الجديدة الغير رومانسية من خلال تعلم الطفل اللغة من مجتمعه وهو يولد مُهيأ ليكتسب لغة مجتمعه بما يمتلكه منذ الولادة من نسق لغة عالمى عام.

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٥٦).

آخر، و هكذا دون توقف...إذن لا توجد مدلولات. كل شيء له معنى و لا شيء معنىٍّ (مرتبط بدال محدد ثابت دوماً، لأن الدال أصبح يُشير إلى دال جديد و ليس لشيء موجود خارج اللغة)". (١)

هذا ما توقف عنده البنيويون، و بنى عليه و طوره التفكيكيون فأنتج اللعب الحر للدوال و مراوغة الدال لمدلوله، و فتح الباب لـ لانهائية المعنى، و لا نهائية القراءة. بعدما قالت البنيوية بتعدد القراءات و المعانى، مما نتناوله تفصيلاً فى الفصل التالى.

٣. من أهم إنجازات البنيوية محاربة الذات الفلسفية و نسف (الكوجيتو)، وفتح المجال أمام إنتاج فلسفة ليس فيها للفاعل دور، كالـ (ابستمى)(*) عند ميشيل فوكوه(٢)، و تطورها بفلسفة الـ لامركز عند جاك دريدا. (٣)

فنجد فوكوه قد استخدم "كلمة (ابستميه **e`piste`me**) ليشير بها إلى (مجموع العلاقات التى تربط بين الممارسات المقالية فى عصر معين)،

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٢٥٦).

(*) ابستمى عند مشيل فوكوه تعنى التفسير الحقبى للمعرفة (بمعنى أن كل حقبة – فترة زمنية – لها ما يميزها عن غيرها من الحقب المختلفة الأخرى، و بنية كل حقبة ثقافية (من علوم و معارف) تحددها مجموعة العلاقات التى بين العناصر المكونة لها، و اختلاف هذه العلاقات هو الذى يحدد سمات كل حقبة، وهذا يشبه فلسفة دريدا التى هى بلا مركز فهى بلا مرجع سواء للغة أو حتى لتشكيل المقال فلا وجود عند دريدا ألا من خلال اللغة، و هو نقد الفكر الغربى بحجة أن المركز هو الذى يضلل الفكر بتسلطه من خلال الميتافيزيقا.

(٢) فوكوه : " أركيولوجيا المعرفة "ص (٢٥٠)، نقلاً عن د / عبد الوهاب جعفر : " البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه) ص (١٢١).

(٣) د / جورج زناتى " تأثير البنيوية فى الفلسفة _ الفلسفة الـ< بلا مركز > عند جاك دريدا " مقال بالفكر العربى عدد (٦، ٧) بيروت فى تشرين الأول و الثانى ١٩٨٠ م، ص (٨٢).

وهى الممارسات التى تؤدى إلى أشكال معرفية و علوم و أنساق صورية، كما تُحدد النمط الذى تظهر به هذه العلوم".[١]

نعم أن المشروع البنيوى طمح بنزعته العلمية إلى أن ينسف الذات الفلسفية، ليُخضعها كبنية (أو كمجموعة علاقات) لتُبحث وتُدرس تجريبياً، و كذلك أخضع إنتاجها الأدبى للبحث التجريبى بمنهج علمى، لتتنازل عن دورها السابق (كانت هى الباحث الملاحظ و فى نفس الوقت موضوع الملاحظة و البحث)، و بعد تطبيق النموذج اللغوى و التحليل البنيوى، لا يبقى سوى الأنساق البنيوية، حتى الذات تحولت لبنية. و على نفس وتيرة تجاهل الذات أو الظن أنهم تخلصوا منها نهائياً، يتعامل فكر ما بعد الحداثة،عدا نظرية التلقى (التى تُظهر الذات من جديد، و لكنها ذات المتلقى أو الكاتب الجديد للنص). فالبنيوية خلصت فكر الحداثة، و ما بعد الحداثة من شبح الذات الميتافيزيقية.

و تفسير ذلك يرجع "إلى أن ((الأعمال الفردية هى لحظات)) تُجسّد ((النظام ككل)) و تمثله، تماماً مثلماً أن اللغة الأداء تجسد قوانين و أنظمة اللغة النظام، و تخضع لها... لا شك أن هذا الفصل بين (اللغة النظام) و بين (اللغة الأداء) هو الهوة السحيقة التى اختفت فيها (الذات)". [٢]

---

(١) د / جورج زناتى " تأثير البنيوية فى الفلسفة _ الفلسفة الـ< بلا مركز > عند جاك دريدا " مقال بالفكر العربى عدد (٦، ٧) بيروت فى تشرين الأول و الثانى ١٩٨٠ م، ص (٨٢).

(٢) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد البنيوية "، ص (١٥٣).

ووفقاً لوجهة نظر فوكوه أصبحت مقولة "((أنا أفكر)) تتشابك مع كثافة قاتمة تحول بينها و بين ((أنا موجود))، و هذه الكثافة ليست شيئاً آخر غير كثافة اللغة التى من شأن الذات دائماً أن تودع فيها نفسها".[١]

و ينقل (لاكان) مركز الكينونة إلى مقولة الوجود "أى مقولة ((أنا أفكر إذا أنا موجود)). يقول لاكان مناقضاً ديكارت : ((أنا أفكر فقط حيث لا أكون))، أو العكس : ((أنا موجود فقط حيث لا أفكر)) لأن اللاوعى المبنى أبداً على نهج اللغة ((ينطق)) قبل أن يخطر ببال أى ذات ((وهم)) التفكير ".[٢]

٤. و أخيراً "قد يقلل البعض من أهمية البنيوية الألسنية كأساس لما بعدها. لكننا لو قرأنا البنيوية و ما بعدها جنبا إلى جنب، لوجدنا الحتمية التى تربطهما معاً، بل لعل البنيوية هى السبب و ما بعدها النتيجة. و لئن كانت ما بعد البنيوية ترفض مبدأ السبب و النتيجة، فإنها فى المقابل تزعم أن البنيوية أغمضت عينها عن، أو قمعت، مكتشفاتها الحقيقية مكررة بذلك الحركة الميتافيزيقية : حركة تمركز اللوجوس[*]. و بالتالى فإن ما بعد البنيوية ليست أكثر من تفعيل آلية القمع و تحريكها ".[١]

---

(١) المرجع السابق : ص (١٥٥).

(٢) المرجع السابق : ص (١٥٦).

(*) كانت الفلسفات ونظريات النقد قبل البنيوية تجعل من الذات الإنسانية (أو العقل البشرى) مركزاً للمعرفة و ضامناً لعلاقة المرجع الخارجى بالعلامة التى تُشير إليه، وبعدما فصلت البنيوية الدال عن مدلوله وبعدما أقصت الذات عن مركز المعرفة نجدها قد أحلت اللغة= =محل الذات كمركز جديد للمعرفة والكون، و ذلك بقول البنيويون بأن كل مدلول يتحول إلى دال ولا يَشير إلى مدلول ولكن إلى دال جديد، وبذلك يتحول العالم إلى مجرد دوال أى لغة و بنية يحكمها فقط النسق العام للغة و النظام اللغوى فلا فوجود إلا للغة و باللغة ، و للمزيد يراجع د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص ص (١٨٢ _ ١٨٣)، و

وعلى ذلك نجد أن فضل البنيوية على ما بعدها من نظريات نقدية، هو فى أنهم قد نقلوا عنها أهم الأفكار، التى بنت عليها النظريات النقدية التالية لها نظرياتهم، و هذا يمكن التأكد منه لو دققنا و أمعنا النظر جيداً، فى جميع الأفكار، التى تمثل أهم مبادئ نقد ما بعد الحداثة، من استقلال و أولية و آلية اللغة، و تناص و بينصية و لانهائية المعنى و تلقى و ظاهراتية، جميعها بذور بنيوية تفتحت تفكيكياً، حتى النص (المقتبس – قبل السابق –) و الذى يقلب فيه لاكان مقولة ديكارت إلى ((أنا أفكر فقط حيث لا أكون)) هى نفس طريقة قلب دريدا لأفكار و مقولات الفلاسفة السابقين حين يتناول نصوصهم بالتفكيك، و هى نفس الطريقة التى يثبت بها أولية الكتابة على الصوت(*)، و لا ننسى أن نقاد ما بعد الحداثة مازالوا يتعاملون مع النصوص على نفس الأسس البنيوية ؛ فالنصوص و الأعمال هى بنية لها مكونات البناء و لها قوانينها النسقية، و إن كانت استراتيجية التفكيك تعمل على خلخلة هذا البناء.

و بهذا نكتفى لنعقب على هذا الفصل و نتوجه بأدوات البحث لمعقل الفكر الغربى الأخير، و لب فكر ما بعد الحداثة، فى الفصل التالى الذى يتناول التفكيك و علاقته بفكر مارتن هيدجر، لنرى عن قرب و نلمس الوجود البنيوى بعد تفكيكه.

Art Berman : " from the New Criticism to Deconstruction "p 40.

(١) المرجع السابق : ص (١٥١).

(*) يرى دريدا أن كل صوت هو بالضرورة قراءة لكتابة سابقة، ليثبت خطأ مقولة الفكر الغربى الذى يعطى الصوت الأهمية والأولية على الكتابة التى ظلت يُنظر إليها على أنها ثانوية تفتقر للحضور الذى يتمتع به النطق المباشر (الصوت)، وهذا سوف نتناوله بالتفصيل فى الفصل التالى .

التعقيب:

لقد وجدنا فى هذا الفصل أن البنيوية حققت قفزة على مستوى العلم، وجاءت كنظرية نقدية، لها وجاهتها، كمحاولة لدرأ الشك المعرفى من جهة، ومن جهة أخرى لخلعها صفة النظام و التنظيم لأول مرة على الفكر البشرى، وذلك من خلال محاولتها لتطبيق المنهج العلمى على الإنتاج الفكرى والأدبى وما هو ذاتى، مثل الثقافة و الأدب و المعارف التى كانت تفتقر حقاً للتنظيم. و هنا كانت مشكلة البنيوية حيث تطبيقها كنظرية نقدية على الإنتاج الأدبى (الإبداع الذاتى والقصدية والأحاسيس و المشاعر و الشاعرية)، كيف يمكن ضبط كل هذا التنوع والتشتت ؟ خصوصاً و هذا كله ناتج عن عمليات النفس الإنسانية داخلياً، وعن عمليات العقل، و عوامل شتى لا يمكن ضبطها، ولا التأكد تجريبياً من صحتها، حتى نخضعها لقوانين العلم، هذا عدا التداخلات والاختلافات الشخصية، لأننا نتعامل مع إنتاج فردى شخصى ذاتى، بحيث يمكن القول بأن البنيوية قد أفرغت بالنزعة العلمية الأدب من أدبيته.

ثم أن النظام المتبع بنيوياً لمقاربة النص يُعد نظماً جيداً، و من ممكن أن يمسك بالمعنى، و إن كان معناً مشوهاً، بسبب المغالاة فى التجريد الرياضى، مما يجعلنا نقرر أن سبب قصور تطبيق البنيوية (على الأدب) محصوراً فى خطوة التحليل – التجريد فى علاقات العناصر – المتبع أكثر من أى خطوة أخرى. و البحث البنيوى لم ينته بعد، بل ما قدمه هو البداية فقط، لما قد يَجد من نظريات نقدية سَتُعيد النظر من جديد، فى الخطأ التقنى المُتسبب فى عدم صلاحية البنيوية للتطبيق (على الأدب)، و إذا ما حدث ذلك، فقد يكون هذا هو المخرج من الوضع الحرج الذى فيه الفكر الغربى الآن، من جراء متابعته للبنيوية و أخذه بدربها حتى من بعد أفولها.

و البنيوية على مستوى اللغة تعد نموذجاً جيداً للتطبيق حتى الآن فى عدة مجالات، عدا الأدب، فالنظرة البنيوية مازالت تشغل مجالات السياسة و الاقتصاد و علم النفس و غيرها، و لذا لا ينبغى التحقير من قدرها لأنها للآن لم يتم تقيميها بحق على المستوى الثقافى بمعقولية، أليست الإنجازات البنيوية هى بلا شك أكثر قيمة من سائر نظريات النقد اللاحقة عليها إذا ما أخذنا فى الاعتبار دورها و تأثيرها على ما تلاها من تفكيك و تلقى و ظاهراتية ؟.

إن القيمة الحقيقية للبنيوية يجب ألا تُقيّم على مستوى الأدب فقط، بل على مستوى الفكر و الثقافة الإنسانية، كمنهج و كنظرية يمكن بتطبيقها إذا أخذنا فى الاعتبار ما توفره لنا النظرة البنيوية.

و خلاصة بحثنا فى نقاط هذا الفصل، و من منطلق الأسئلة المحورية التى طرحناها فى التمهيد، نُجمل أهم ما توصلنا إليه من إجابات لها فيما يلى:

١. يتعذر التغاضى عن الجذور الفلسفية و المنهجية الممتدة من كانط للبنيوية، بحيث يمكن القول إن البنيوية جاءت لتحقق الحلم الكانطى من حيث الأخذ بالمنهج العلمى.

٢. لقد وجدنا أوجه الشبه كثيرة جداً بين مثالية كانط العقلية و البنيوية كنظرية، بحيث يمكن القول إنها مثالية نقدية لغوية أو كانطية لغوية، و إن كان كليهما يتسم بالغموض المقصود، فتُعد البنيوية أكثر و ضوحاً و تحديداً من فلسفة كانط.

٣. أتضح لنا أن هدفهما واحد، ألا و هو تنقية الفكر البشرى أو الغربى من شوائب الميتافيزيقا، و الأخذ بالمنهج العلمى فى المجالات الفلسفية، مما نتج عنه تسرب الميتافيزيقا لكلا الصرحين الفلسفيين.

٤. و كشف البحث أيضاً، أن كلاً من البنيوية و مذهب كانط، قد ظهرا فى ظروف متشابهة، فكلاهما جاء كرد فعل لموجة شك و جدل فلسفى، و شبه فراغ و تعطش فى الساحة الفكرية.

٥. توصلنا أيضاً إلى أن البنيوية تُمثل بحق بؤرة تجميع للعديد من المناهج و المذاهب السابقة عليها، بوصفها حلقة وصل و تواصل لجذورها الفلسفية، و هى بنفس القدر من التواصل و أكثر أعطت ما بعدها، و مع ذلك لها ما يميزها، و لها سحرها الخاص كنظرية فى التفكير العلمى الذى يمكن أن يفيد على مستوى العلوم الإنسانية.

٦. وجدنا إن معظم الأسباب التى أدت لتراجع المد البنيوى، و انحساره تخص التطبيق، و ما تسرب لها من الميتافيزيقا و ليس النظرية البنيوية، مما يجعلنا نرفض القول بفشل البنيوية بل نقول انحصر تطبيقها فى مجالات (كالاقتصاد و السياسة و الأنثروبولوجيا) دون أخرى (كالأدب و النقد)، لصعوبات تخص موضوع الدراسة، حيث لا تصلح البنيوية لجميع العلوم الإنسانية (كالأدب و النقد الأدبى).

٧. و كشف البحث هنا أن النموذج اللغوى ذلك العملاق الشامخ، كما وصفناه فى الفصل السابق، هو سبب ظهور البنيوية كوميض خاطف فى الفكر الغربى، و هو فى الوقت نفسه سبب نكوصها عند التطبيق، سواء على مستوى الأدب و النقد الأدبى.

٨. تكشف لنا أن التحليل البنائى لا يعمل على بناء الإنسان، بل يعمل على تحلله فلسفياً، بالرغم من كشفه للبنايات الفكرية و المعرفية و النفسية و الاجتماعية الخاصة بالإنسان.

٩. رأينا كيف أن تصريح البنيوية بموت المؤلف و نهاية الذات الفلسفية، كان ذلك على حساب الإبداع الأدبى البشرى لصالح إبداع اللغة، بالرغم من اقتراب التحليل البنيوى من عملية الإبداع خلال تناولنا لموضوع الاختيار لوحدات النص من المحورين الأفقى و الرأسى.

١٠. وجدنا أن البنيوية لا تخلو من تناقضات و نقاط مظلمة بصفة عامة، مثل التحولات، كمفهوم يتعارض مع ثبات البنية و غير مفسر بنيوياً من حيث هى دراسة محايثة حالة. و كذلك لا تفسر البنيوية مصدر النسق العام، فى حين تفسر مصدر النسق الخاص بالنوع الأدبى، و تعترف بالحقب المعرفية و تكفر بالتاريخ و التطور، فكيف تفسر اختلاف الحقب المعرفية المختلفة. و ترفض الذاتية فى مجال النقد الأدبى الذى من أخص مميزاته الموهبة الفردية و التعبير الذاتى و الشخصى.

١١. رأينا كيف بدأت البنيوية برفض الظاهر بحجة أن الحقيقة تقبع تحت الطبقات الظاهرة، و انتهت إلى نسبية الحقيقة و استحالة معرفة الأشياء فى ذاتها.

١٢. و خلاصة موقفنا من البنيوية هو أن كل هذا قد لا يقلل من شأن البنيوية كنظرية فى التفكير لها إنجازاتها، فهى قد أثْرت خبرتنا بموضوعات و مجالات نراها لأول مرة بفضل النظرة البنيوية.

و ننتقل الآن لنتعرف على امتداد تلك الجذور عبر البنيوية، و كيفية دفعها إلى أقصى مدى ممكن على أيدى التفكيكية، و ذلك من خلال الفصل التالى عن التفكيكية و مارتن هايدجر.